maktabbah.blogspot.com

ميرة الهادي

لا سماء فوق المدينة

رواية

منشورات الربيع

مكتبة بيت الأفكار
maktabbah.blogspot.com

ميرة الهادي

لا سماء فوق المدينة

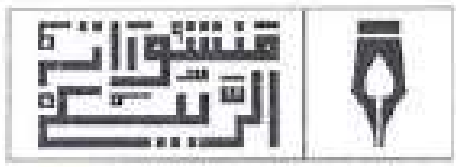

تناثر عشرة آلاف شلوٍ مُضيءٍ بوهجٍ برتقاليٍّ، فبدتْ ككرنفالٍ يحتفي بذلك الهدوء الذي حضر رغم تأجُّج النيران والدُّخان الأسود القاتم الذي يتلظّى مُنتفضًا دون سببٍ مُحددٍ، فيُعيد التكاثُر في ذاته كعنقاء لعينة، ويظل يولد من داخل نفسه كلَّ لحظةٍ ولادةً جديدةً. نعم. ولادة جديدة. هذا ما تحتاجُه هذه المدينة. ليس صمتًا، لكنه هدوء. شعورٌ عامٌّ يربتُ على رُوحك المُضطربة فتستكينُ. وهواءٌ عليلٌ يضربُ فجأةً كلَّ هذا الدخان فيُزيحُه ناحيةَ المدينة الأخرى. وتتجلّى مدينتُنا في هذه العتمةِ عبرَ النّهر هادئةً شبحيةً تُضيئها الأشعّة المُتلألئة لنجومٍ بعيدة إضاءةً خافتةً. وقفتُ مُستندًا على سور النيل العظيم فاتحًا ذراعيَّ أحتضنُ المدينة، والسماء وانعكاسها المُترقرق على صفحات الماء، والهواء يضرب وجهي فأترك رأسي تنثني إلى الوراء دون مُعاندة. وتسقط من عينيّ دموعٌ صامتةٌ تخشى خدشَ كل هذا البهاء. أتأمّل المركب الذي ينقل العابرين واقفًا في وسط الماء والعتمة، يتموّج ببطء كسفينةٍ أسطوريةٍ. تقتربُ هبةُ مِنّي على استحياء، وبتلقائيةٍ، ودونَ تفكيرٍ أُمسكُ بيدي اليُمنى كفَّ يُسراها وأشدها لجانبي فتميل برأسها على كتفي. أتنفّس بعُمق. وأشعر بكل شهيقٍ يتخلّل مسامي ويتوغّل داخل جسدي فيُنظفه من كل هذه الإشعاعات والقذارات التي أغرقوني فيها. الهواء البارد يُعيد ترتيب خلاياي فيُعيد إليّ رجولتي المفقودة، ويُصيبني انتصابٌ غريبٌ وغير لائق لكنني أخفيه

بيراعةِ بيدي اليُسرى. أميلُ برأسي لأقبّل هبة لكن سيليا تأتي عن يساري فأخجل. أقول لها: أرأيتِ؟ هذا ما تحتاجه المدينة! سمعتُها: وما الذي يجعلك واثقًا كهذا؟ وكأنك لا يمكن أن تكون مُخطئًا؟! شعرت بالجوع فجأةً أنا الذي فقدتُ شهيتي منذ زمنٍ بعيد. لعلها رائحة اللحم البشري المُحترق التي تشبه رائحة الباربكيو. وهل فيه لحمٌ سوى سمائته اللعينة؟ تملّكتني نوبةُ فزع. مريم واقفةٌ على السور وسمير جاء أيضًا وخُيّل إليّ أني رأيتُ سامي. تأملتُ الغجرية الفاتنة المُتلألئة بضفائرها المُنتظمة ورقصتها اللعوب وقلتُ لا يمكن أن يكون كل هذا غير حقيقي. العابرون في السفينة مُضطربون ترى ظِلالهم المُتناكفة وهم يحتدُّون خائفين، يتجادلون: أعلى السفينة أن تستمر إلى المدينة الأخرى أم عليها العودة لمدينتنا بعد هذا الانفجار المُخيف وانقطاع التيار؟ لماذا لا يهدأون ويتأملون السّماء أولادُ الزواني؟ سمعتُ أصوات سيارات الإطفاء وأنوارها تخرق اللحظة، ولم أُبالِ. التفتُّ لسمير وصرختُ دون مُبرر: أتوجد لذّة مثل هذه؟ جسدي يرتجف وقد بدأت الآلامُ تغزوني. صوتُ حسيس النار وذرات الجسد المُحترق التي ابتلعتُها مع الهواء أصاباني بغثيانٍ ابن عاهرة، فانثنيتُ أقيء، شعرتُ بأيدٍ تشدُّني، فرفعتُ رأسي، وجدتُهم واقفين صفًا جميعًا فوق السُّور مُمسكين بأيدي بعضهم ينظرون إليّ، فهمتُ ما سيفعلونه فحاولتُ الاعتدال، لكن القيء غلبني فأفرغتُ مرةً أخرى ورفعتُ يدي أحاولُ

maktabbah.blogspot.com

إمساكهم. قفزوا واحدًا تلو الآخر. أقيءُ لا شيء منتظرًا خروج معدتي كلها من فمي لكني لا أملك التوقُّف، والدموع تنهمرُ من عيني، وحين ساعدتني أيدي الأمين سيد أخيرًا لأعتدل، سمعتُ صوت المُولّد الاحتياطي يعمل، فرفعتُ رأسي لأجد الكهرباء قد عادت وسمعتُ أصوات الاحتفال بعودتها في المدينة رغم المسافة غير القصيرة. تأملتُ الماء منتظرًا خروجهم منه لكنه لم يكن سوى موجٍ مُعتم بطيء بسبب تيار الهواء يضرب أكوام ورد النيل العائمة ويحمل المركب العابرة إلى المدينة الأخرى بمُحرّكها المُزعج وراكبيها الأشباح، حتى وصلتُ إلى المرسى، ونزل منها الناس ليضعوا جُنيهين على الطاولة كأن شيئًا لم يكن. نعم يا عزيزي إنه عصرٌ جديد. لا وقت فيه للوقوف دقيقةً حدادًا على الموتى. عصر السرعة القصوى والإنترنت بلا حدود، عصر التقنية والآليين والمُتحوّلين. عصر الجيل Z. جيل ما بعد الألفية البائسة. عشنا وشفنا بنت الناس تقول لصاحبها وقد انتهيا من ممارسة الجنس غاضبةً: وماذا تريد أكثر من ذلك؟ ما الذي سيُضيفه لنا الزواج؟ It's bullshit. طبعًا بنت الناس مُتعلمة في مدارس أجنبية مستوردة، لكنها رغم ذلك أجهل من دابة. أقول ذلك وأعنيه وهو ليس افتراءً فبنت الكلب هذه أختي الصغيرة. كل شيء في هذه المدينة مُزيف. مدينتُنا – لأقرّبها لك – تُشبه مدينة جوثام غير أنّا بلا وطواطٍ ليليٍّ ولا ضابطٍ نظيف ولا مُحافظ يحافظ على شيء، لدينا عائلات واعين لكن رأس

الغول لا يتعدّى كونه رسومًا مصورةً أقرأها وتغضبُ أمي لأني أضيّع وقتي ولا أركز في دراستي، هل تغضب أمي فعلًا؟ أم تمارس دورها الأمومي كما رأته في أفلام السينما؟ لا يمكنك أبدًا تمييز الحقيقي من المُفتعَل هذه الأيام. تسخط عليك وتعبس بجبهتها لكنك بعد دقائق تراها تمارس جنسًا فمويًا مع أبيك. أيُهما الحقيقيُ؟ غضبُها أم جنسُها الفمويّ؟ لا تُدرك أبدًا. وهو أيضًا الذي لتوّه أفرغ منيّه على سرير أختي المُوقّرة -رأيته وهو يفعل من خلف الباب الموارب - ربما أصابته حُمّى التصنُّع وربما هزّته الحقيقة لكني أشك. العلاقات كلها زائفة فلا مجال لهزّات الحقيقة ولا حتى همسانها. أقرأ كتبي الكثيرة مُتشاغلًا عن الألم. حتى الكتب لا تخلو من الزّيف. لكنه - والحق أقول لك - زيفٌ يمكن كشفه. أما هؤلاء البشر المناجيس فمحالٌ كشف زيفهم. خذ عندك مثلًا أخي الأكبر، يعمل مهندسًا، متزوج ولديه طفل، كل جرائد المدينة تُخصص صفحةً يوميةً لمغامراته "العاطفية". وحين أقول جرائد المدينة فإنني أعني كل المدينة، فسائقُنا أبو رضا لم يبق له سوى القليل والحصول على جائزة بولتزر، لا يترك شيئًا يعرفه أو لا يعرفه في بيتنا إلا ويُخبر به حارته وزملاءه الصعاليك. يقول لهم: الغِنى هذا نقمة. ويهز رأسه مُتأسيًا كدرويش. وفي التلفزيون يظهر أحد زعماء الاشتراكيين يتساءل: إلى متى ستظل مدينتُنا مُقسّمة إلى أثرياء ومدقعين؟ أين حق الفقراء في تعليم نظيف؟ أقول: مُزيّف. بالطبع مُزيّف. وما فائدة

التعليم؟ انظر لأخي المهندس المتعلم خريج الجامعات الأجنبية، وأختي التي تدرس الإعلام المستوزد، وأبي وأمي طبيبي الأسنان وأساتذة الجامعة. بماذا نفعهم التعليم؟ تعليم مغشوش ككل شيء في هذه المدينة. التعليم الحقيقي في الكتب والكتب مُلقاة على الأرصفة لمن هبَّ ودبَّ بلا رابط أو ضابط، كل ما تحتاجه هو قدرة على معرفة الحقيقي من المُفتعل. أصابني الحلم مرةً بكتابة كتاب يُعرِّف الناس الحقيقي من الزائف لكني نأيت بنفسي عن هذا الشَّرك، فكيف أعرف أن ما أكتبه حقيقي أم مُصطنع؟ فالإيمان بشيء لا يكفي لجعله حقيقيًا. كم من فكرةٍ آمنتُ بها وكانت حقيقية أكثر من وجودي ذاته، لكني حين لفظتُها أمام آخر بهتت وصارت وهمًا. أنتَ حين تحكي عن قناعاتك وأفكارك لا تدري أتقول عنها فعلًا أم تنافق بها بحثًا عن انبهار في عين أو رابط اجتماعي، أو توطيدًا لصلة، أم فقط لتظهر أمام نفسك بمظهر المثقف العارف ذي القناعات المثالية الرائعة. لما وصلنا الديسكو (لا تنسَ أن تعليمي إنترناشونال بمدارس بريطانية) الموجود في فندق القاهرة الزنخ؛ أنا وأخي الطويل – والطول شمت أسرتنا – ذو الصلعة الخفيفة ونحن نرتدي بدلات رسمية لفتني مظهري في المرآة وأيقنت أنها ليلة لعينة. ليس ثمة وقت لليل أو نهار في التخشيبة. هناك شاويش عبد المحسن وباش شاويش حنفي. الأول قذفني بيده داخل التخشيبة وقال بصوتٍ روتيني: وصاية. ثم أغلق الباب. والآخر فتح الباب وأدخل يده

وحدها ليشدّني خارجًا لأحاول لملمة ما تبقّى من كرامتي ورجولتي. تجوّلتُ أمي في كل أنحاء الفيلا تفتح الباب تلو الآخر، ثم دخلتْ غرفتي وفتحتْ باب الحمام ووقفتْ قليلًا، ثم عادتْ من جديد، وقفتْ أمام سريري، فرفعتُ رأسي عن الكتاب الذي أقرأه. قالت: هل تعرف أن هذا البيت مسكون؟ أنا أرى. هذه مِنحة ربانية أنا أرى وأعرف البيت المسكون من غير المسكون. قلتُ: مسكون بماذا؟ عفاريت؟ قالت: مسكون! بسبب السحر والأعمال. أشارتْ لي بسبابتها على فمها لأصمت، وقالت: هل تسمع هذا الصرير؟ إنه لا يتوقّف في أذني، أحيانًا أكون جالسة أحدّث أباك وفجأةً أجده يدخل من باب الغرفة، مَن كنتُ أحادث إذًا؟ أنا لستُ مجنونة! يجلسون جواري وأشعر بهم، لكني حين أنظر لا أجد شيئًا. وفي الليل يسحبون الغطاء من فوقي وأسمعهم يضحكون. بلت الكلب تحسب أنها بأعمالها السُّفلية ستُفقدني عقلي. قلت: ماما، الرحمة! انهارت فجأةً تلطم وجهها وتقطّع شعرها وتخمش خديها صارخةً: يلعن أبوك أنت وإخوتك كلكم أولاده، أولاد كلب، لا أحد فيكم يحبني أو يشعر بي، وأنا أفعل كل ما أفعله لأُعيده إليكم، إسفوخس عليكم وعلى البطن التي أنجبتكم. ثم غادرتْ. شعرتُ بالغضب لأن عليّ الآن أن أقوم وأغلق الباب. قال: لا تجعل مرضك يعوقك عن الحياة. قلت: هل تمنعك صلعتك عن الحياة؟ ضحك ضحكة عالية وهو يُخرج من جيبه حشيشًا ويستعد للفّه على الطاولة. قال:

you're a fucking son of a bitch. قلت: تعني ابن عاهرة. نظر لي بابتسامة ساخرة وهو يلحس ورقة السيجارة ليُغلقها وقال: وماذا أيضًا؟ تبًا لك؟! في أيّ مدرسةٍ تخرَّجتَ؟ قام واقترب مني وهو ينفث دخان سيجارته في فمي فسعلتُ وابتعدتُ قليلًا لكنه أمسكني من كتفي، وأنا هزيل، هزيل حد التجوُّف، هزيل لدرجة أني أشبه جرادة لعينة. قال: ستأتي معي الليلة. وأنا لستُ مُحاربًا على الإطلاق، نظرة واحدة لنحولي وعظمتي وجبتي كافية جدًا لمعرفة أن ذلك الكائن الذي هو أنا لا خطر منه على ذبابة. تعرف قطعًا القول بأن الإنسان إذا فقد شيئًا تكسَّب آخر ليستعيض به، كالأعمى الذي يقوى سمعه، نعم. قولٌ مُزيف. بالتأكيد. أنا فقدت الكثير لكني لم أكسب شيئًا، اللهم إلا لساني السليط. بالطبع الفالية يعرف أخي جيدًا فالسيارة المرسيدس المكشوفة السوداء المطّ لا يوجد منها الكثير في المدينة، ورائحة البرفيوم العتيقة هذه. إنه لا يستحم على الإطلاق ويمكنك جر سيارة نقل بشعر إبطه البغيض. مشهده وأمي تُجلسه جوارها لتنزع شعر إبطه بالحلاوة مشهد تكرر كثيرًا، على الأقل حتى تزوَّج، تصنع أم رضا الحلاوة لها وتُجلس أمي على كنبة اشترتها لأجل ذلك، وتبدأ في نزع الشعر عن رجليها وذراعيها، أحيانًا تأتي بفتيات خصيصا لإزالة شعر جسدها، لكنها اعتادت القول إن لا أحد أحنَّ عليك من نفسك. تنادي على سمير وبعد جدال تُقعده جوارها وتنزع شعر إبطه فيحمر وجهُه ويسب بالإنجليزية، تربُت

أمي على خدّه وتقول: حبيبي الذي يُنصفني! ثم تندب حظها في ابنتها الوحيدة العاقة وعلاقتها المُشوهة بها، تحكي قصصًا عن علاقتها الرائعة بأمها. أذكر واحدة: حين صفعتها أمها في إحدى المرات بسبب بذاءة لسانها، وما كان من أمي إلا أن دخلت لغرفة نوم أمها واختبأت في خزانة ملابسها وفي يدها مقص ضخم، وأعملتْ يدها في العتمة فقصّت كل ما طالته من ملابس أمها. عاقبتها أمها على فِعلتها هذه فقصّت شعرها كالأولاد. تتنهّد وهي تحكي القصة وتتأسف على ذهاب أيام زمان وجمال أيام زمان. ثم تضحك قائلةً: كنت بنت شقية.. وما زلتُ! ولهذا يُحبني سرور. تنتبه لأظافر قدميه الطويلة فتُقرر تقليمها عنوةً. تُمسك قدمه بإحكام وتضع طرف الظفر في منتصف فتحة القصافة بالضبط وتضغط فيصرخ وتتطاير مخالبه عائمةً في هواء المدينة المُغبر. مدينتي أحب تسميتها بأسماء متعددة لكن لا أروع من اسم جوثام. ليس بسبب تعليمي المستورد الشوكولا، لكن لأن جوثام تشبه في العربية الجاثوم، فالمدينة بالضبط كالجاثوم تجثم على صدرك حتى تكاد تقطع أنفاسك فتظل تلهث، تلهث ككلب غريب مُطارَد من كلاب الحي ومن صيادي البلدية الأنجاس. وأنا على كل حال لا يعنيني صيد الكلاب إطلاقًا. الكلاب ربما تكون حقيقية في وفائها للإنسان لكن من يدري عن وفاء الإنسان للكلاب؟ إن قتل الكلاب في مدينتنا لهو أمرٌ حسنٌ جدًا للكلاب. بالطبع وقفنا عند الباب ذي المرآة قليلًا لأني

ترددتُ في الدخول، أكره الزيف لكني أجبنُ من قول "لا" بصوتٍ عالٍ، التفتَ لي أخي وعدل من وضع البيبيون على رقبتي ثم تحسّس بيده خدّي الأملس وقال: تبدو وسيمًا. آه. لو أن هذه الليلة ستسير على هذا المنوال سأشنق نفسي بهذا البيبيون الخانق. الفتيات يرقصن على الأعمدة، وأخريات يتمايلن بين الطاولات، وأخريات يدُرن بالكؤوس المليئة بكل مُذهبات العقول. صافح أخي أناسًا وأجلسني معهم فحُشِرتُ في منتصف الكتبة المخملية الحمراء نصف الدائرية التي تحتضن طاولةً مُثبتة في الأرض بمسامير غير مرئية. سألني عن نوع الشراب الذي أفضّلُ فتلجلجتُ فقال شيئًا لم أتبيّنه من صوت الموسيقى الصاخبة. لن أحدّثك عن زيف الموسيقى لأن ذلك سيكون مُملًا. أصدقاء أخي الموجودون ثلاثة أولهم له بطن عظيمة وأثداء مُرضعة، والثاني إنسان عادي بلا علامة واضحة كأنه ظِل إنسان، لعل ذلك خارق في هذا المكان الذي يسعى كل رُواده للاختلاف، فعاديته تلك جعلته مُميزًا بشكل كبير، كأنك وضعتَ مربعًا أحمر في رقعة شطرنج كلاسيكية. جاء الثالث حاملًا الكؤوس مع سمير الذي وضع ما بيده على الطاولة ثم دار ليتمايل قليلًا مع إحدى الراقصات على صوت الموسيقى، ثم جلس ضاحكًا جانبي على طرف الكنبة العريضة مُشعلًا سيجارة مخدرات وقال: لا، لسنا في المنزل، أفِق وhave fun. ما الذي يضايقه بالتحديد في المنزل؟ أخته الصغرى تصعد كل يوم

لغرفتها بشاب جديد وتتأوه كأنها تريد إخبار كل المدينة، نعم لسنا في المنزل ذلك يعني أن زوجته ليست هنا. دار حديثٌ مُمل بينه وبين أصحابه عن رحلته الأخيرة باليخت التي اصطحب فيها جميلة الجميلات فيرجينيا المدينة: فريدة أبو الدهب، التي يسعى الجميع إليها سواء لجمالها أو لجمال رصيد أبيها في البنوك. قال ذو الأثداء شيئًا عن فوزي النجار وعن كونه سيتقدم لخطبة فريدة، فشخر أخي وأشاح بيده: كلام فارغ، كل الجرائد ستكتب غدًا عن رحلتي معها على اليخت في الساحل. ثم تراجع ضاحكًا بصخب وهو يضربني على كتفي. الحق أقول إني طالما ظننته سيكون ضابط شرطة، فهو لم يُبدِ ذكاءً منذ الطفولة بقدر ما أظهر من رعونة. قال صاحبه ذو الأثداء يخاطبني: وأنت في أي سنةٍ يا شاطر؟ قلت: لا زلت رضيعًا ممكن ترضعني؟ ضحك السمين وألقى كأسه في وجهي، تسمَّرت في مكاني فناولني أخي منديلًا، وقال ضاحكًا: أنت من بدأ. ثم نظر لي لائمًا: لسانك هذا يستحق القطع. ارتجفتُ غاضبًا وأنا أمسح وجهي وبدلتي بمنديل قذر. هذه العادة الوسخة التي تجعلني مهزأً أكثر مما أنا، تحمر خدودي وترتعد يدي وتدمع عيني دون إرادتي عند الغضب. لحسن الحظ أنهم لم ينتبهوا وإلا ما رحموني. قاموا جميعًا للرقص لكني بقيت في مجلسي أدعو الله من كل قلبي ألا تطلب مني فتاتي الرقص لأني لن أستطيع الرفض. أشعلتُ سيجارة مُنتفخة المقدمة تشبه القرطاس، تأملتُ الوشم المُمتد على

ساعدها: جسد امرأة عارية يلف على رقبتها ثعبان وفي فمه سيجارة. وشم دقيق التفاصيل والألوان. شغلني الرمز لدقيقة قبل أن أرفع بصري ناحيتها لأجدها تتأملني هي الأخرى بنظرة ثاقبة، قلت لا مُبالِيًا ومهاجمًا أيضًا: هل تعجبك حدبتي؟ نفثت دخان سيجارتها في وجهي ولم تُعلّق، فقلت: هذا الوشم غريب جدًا، كيف تفسرينه؟ هل السيجارة هي السم الذي تنفثه الحية؟ هزت كتفيها وقالت: لقد وجدته جميلًا في الكتالوج. Looks deep right؟ عرفت فيما بعد كل هؤلاء، فالسمين هو من مشاهير الفيسبوك، نال شهرته بسبب فيديوهات مقالب سخيفة يصنعها مع أصحابه. العادي واحد من القلائل المؤسسين لشبكات التسويق الهرمي في مدينتنا. والثالث هو إنفلوانسر، كان مُدونًا فيما مضى، واشتهر كثيرًا بعد الثورة بصفته واحدًا من شبابها. سمير نفسه من مشاهير الإنترنت أيضًا، رغم صلعته الخفيفة يظل وسيمًا وجسده الرياضي النحيس يساعده على عرض أزياء كثيرة. وعلى كل حال أنتَ لا تحتاج لعظيم ذكاء كي تصبح مشهورًا ويتابعك الملايين على الإنترنت، بل ربما العكس تمامًا هو المطلوب! أما الفتاة ذات الوشم فهي فنانة تزيين لوجوه النساء، تدخل إليها الواحدة منهن فتخرج أخرى، وتعمل أيضًا كعارضة أزياء. جاء أخي وقد انفتح أحد أزرار قميصه وتهاوت رابطة عنقه المرسوم عليها ميكي ماوس وألقى بجسده على المقعد هو وفتاته ضاحكين. احتضنته من يمينه كأنها

تختبئ فيه، فأصابني ذلك بتقزز لا حدَّ له، وأنا أتخيّل شعر إبطه اللعين يتكاثر حتى يخرج من القميص ويبتلع المكان كله. أما فتاته فكانت عارضة للبكيني، جسدها رائع التدوير، لكنك لا تستطيع الجزم إن كان طبيعيًا أم مُصنعًا من السليكون. بالطبع أعرفها، وفي طريقنا إلى هنا رأيت صورتها – وهي مُستلقية على الشاطئ، تستند على ذراعيها، ورأسها إلى الوراء، مبتسمة بجاذبيتها القصوى، وشعرها مُنسدل خلفها، ونظارة شمس بإطار ذهبي وعدسات وردية تُخفي عينيها – وسط يافطة ضخمة على طريق الجمهورية السُفلي ترتدي بكيني رفيع أحمر وجوارها اسم شركة "ألترا ستراكشر" التي تشيد مُجمّعًا سكنيًا جديدًا في الساحل الشمالي. شركة "ألترا" هذه ملك أخي طبعًا. أخي درس الهندسة المدنية في جامعة يتكون اسمها من ثلاثة أحرُف أجنبية رجيمة، تخرّج بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف، أتذكّرُ الحفل المقيت الذي أقيم لأخي حين تخرج. كانت المرسيدس السوداء هدية أبي له يومها. كانت نظرات الحاضرين تتجمّع حولي في ذلك الحفل وتتساءل: أسيتخرّج هذا الفتى من الأساس؟ ترتيبي الثاني بين أخين، أولهما الذي سقط جواري يُداعب فتاته الداعرة، قال لي وقد بدأ السُكر يُذهب عقله: يا لك من أحمق، أتركك مع فتاة راسمة tattoo على صدرها وأعود لا أراك تقبّله؟ قلت مُدافعًا عن نفسي: أقسم لك لم أره. أمسك بكأس صغير وقال: أنا أعرف ما الذي سيُحررك. ثم مد يده لي بالكأس: اشرب

هذا مرةً واحدة. قلتُ راجيًا: أرجوك أعفني لا أريد، أنت تعرف مرضي. قال مُصِرًا كشيطان: لا تُجبرني على تكتيفك ووضعه في فمك. ثم أشار ناحية صاحبه السمين الذي عاد ليجلس وهو يُداعب فتاته وقال: مؤنس سيفرح كثيرًا لو طلبت منه ذلك. كنت أعرف أنهم أولاد زواني سُكارى وسيفعلون ذلك فرضخت وأنا لا أملك قول لا على كل حال. الأمر الذي خفف حدة طلبه على نفسي أني لا أتذوق بعد. أمسكت الكأس ورفعته ويدي ترتجف. ترتجف غضبا أقسم لك. وإن كنتَ أنت نفسك لا تصدقني فكيف تقنع هؤلاء الأنجاس؟ قال: لا تخف ليس سمًا يا أبله اشرب. ومد يده ليساعد يدي المترددة لأسكب التكيلا في فمي. أما ثانيهما فهو ضابط رُتبته الآن نقيب أظن. يترقى بسرعة كالفيراري. أمس كان لا يزال طالبًا. يصغُرني بعامين أو ثلاث. لا يمكنك حساب الميلاد بدقّة بالسنين، فالعمر ليس سوى رقم لعين بلا معنى. الأولى حساب العمر بجراح الروح، بالخذلان، بمواجهة الموت، بعدد القتلى الذين سقطوا بين يديك، بفوارغ الرصاصات والقنابل المُسيلة للدموع المُختبئة في درجك أسفل السرير، بالرجل الذي يختبئ داخلك وشعرك الأسود يُخفي شعره الأبيض، وتموجات وجهك الشابة تُخفي تجاعيده. نعم يعمل ضابط شرطة في قسم.. قسم ماذا؟ لا يهم، قسم لعين، جميعها تشبه بعضها. فالمدينة كلها غارقة في بحر من اللصوص. أي لصٍّ كبير لكنني لا ألومه. بالتأكيد. وكيف لي فعل ذلك؟ لو لم يفعلها

هو لفعلها آخر. هذا أمرٌ مُنتهٍ. مشكلتي أنه يدّعي الشرف ويقول في لقاءاته التلفزيونية إنه رجل عصامي بنى نفسه بنفسه، وإنه يحزن كثيرًا على حال طلبة هذه الأيام الذي يريدون كل شيء على الجاهز. هذه مشكلتي، أنه مُفتعل. كل الناس تعرف ذلك، لكنها تُعامله على الصورة التي يُظهر بها نفسه. أحيانًا تندمج الحقيقة مع الزيف فيولد مزيجٌ مُريب، يصبح الزيفُ الحقيقة، والتشكيك فيه هو الزيف. هل تفهم؟ هذه المدينة مهلكة تغرق في الزيف بإيقاع سريع مُخيف لا يتوقف. هذه المدينة مريضة بسقمٍ يجعل كل سكانها يلهثون كالكلاب. أحرق الكحول حلقي، كل الدماء الباقية في جسدي تفجرت في وجنتيّ وشعرتُ بدُوار. قال أخي: هيا اشرب هذه أيضًا. أشرتُ بيدي أن لا لكنه أمسك فمي النجس وضغط عليه فانفتح وألقى كأسًا أخرى فيه. فيما مضى لم أكن بهذا الضعف. قال ذو الأثداء وهو يُشير بيده إشارة جانبية: صاحبك هنا. التفت أخي وسط سُكره وأشار بيده إشارة بذيئة. الاتزان أفلت مني وكنت مضطربًا. استندتُ على الطاولة بيدي لوهلة، ربما فقدت الوعي دون أن أدري لكني فجأة رفعتُ رأسي فوجدتُ فوزي النجار واقفًا عند طاولتنا ويُحيطه عدة رجال عماليق. أخي واقفٌ هو وأصحابه والفتيات جزعات. قال فوزي النجار شيئًا لم أتبيّنه وسمعت أخي يرد ولم أتبين أيضًا، لكني فهمت من نظراته أنه يستعد لعراك، نظر لأصدقائه ليتأكد: أنتم معي؟ ونظر لي أيضًا. فنظرت له فزعًا. لا، لا، لا أريد

عراقًا، إنّ لكمة واحدة من ثور هائج مثل هؤلاء كفيلة بقتلي. أصدقاؤه أشاروا له بأعينهم: نحن معك. خلع أخي جاكته ثم قال بطريقة مسرحية وهو يقلب الطاولة رأسًا على عقب: Come on motherfuckers. الطاولة التي تتوسّط الساحة الكلاسيك مُرصّعة بالألماس، وقد ينافس سعرها سعر الفيلا كلها. الفيلا التي نسكنُ في شارع جانبي يربط بين شارعين واسعين البحر العلوي والبحر السفلي. أترى إلى أي مدى استشرى الزيف؟ مدينتنا جزيرة في وسط النيل تشتهر دائمًا بمداخلها الجسور السبعة، التي بناها الإنجليز. هذه المدينة يوم قيامها سجنت قائد فرنسا وحبسته داخل دار القاضي ابن لقمان، بعدما كان يصول ويجول في المعمورة على حصانه بلا رجُل يُوقفه. نعم أحفاد رجال لكنه عصر جديد مُنحط بتعريفات جديدة. الشارع الرئيسي يُطل على النيل ويسمونه البحر. الأشجار التي تُحيط فيلتنا طبيعية تمامًا لكنها ضخمة تليدة سرقها أبي من حديقة جزيرة الورد الواقعة في شارع البحر/ المشاية السفلية. هذه الجزيرة –دون حاجة لإخبارك– ليست جزيرة على الإطلاق لكنها –يقولون– كانت كذلك فيما مضى. أفكر أحيانًا هل واقعنا مُفتعَل لأن ماضينا كذلك؟ لا يمكن أن يصل ماضٍ حقيقي إلى واقع بهذا الزيف! في الفيلا توجد مساحة واسعة للأثاث المودرن ويجاورها مساحة للأثاث الكلاسيك. لمَ يوجد نوعان؟ لأن أبي أراد الكلاسيك وأمي أرادت المودرن. وجدّي لأمي كان صاحب القرار

النهائي في وقتٍ ما. جدي لأمي طبيب أسنان عتيق. اليوم تراه ينزل من غرفته التي رائحتها دائمًا توابل هندية غريبة نتنة، يرتدي جلبابًا رثًا بلا لون واضح، ينزل مستندًا على عكاز طبي يشبه مربعًا ينقص ضلعًا، وأنبوب صغير منقسم لنصفين عند الأنف محشور في منخاره البالي والشعر الأشيب يتمدد من هذه الأنف ويتطاير متعلقًا بها كلما تنفس. يُعلق كيسًا طبيًا يتبول فيه وتلقى أم رضا الخادمة زوجة أبي رضا السائق يومًا لعينًا إذا انخرم الكيس وتجول جدي منقطًا البول في كل مكان. الساحة الكلاسيك الذهبية المليئة بتماثيل نحاسية لأحصنة وفتيات عجرية تصب الماء الرقراق في جرار فخارية، يتوسطها الطاولة الماسية، وعلى منتصف جدارها عُلّقت صور للرؤساء وللحزب ولأبي ببدلته الرسمية، يفصلها عن الساحة الأخرى ممر مُغطًى بسجاد فارسي عليه رسم ثلاثي الأبعاد لنمر أرقط من "النساجون الشرقيون"، وهي حديثة العهد في فيلتنا مقارنةً بأختها المودرن التي امتلأت أيضًا بنحاسيات عتيقة أفريقية ومُنمنمات يتوسّطها تمثال متوسط الحجم صنعته أمي خصيصا على هيئة أبيها/ جدي وهو يقف معتدًا شيخًا تليدًا، صنعه لها نحات في شارع المختلط، وتساءلتُ كثيرًا لمَ لمْ تصوره على الأقل شابًا. الساحة الكلاسيك لها مدخل خاص من خارج الفيلا فأبي يُجري فيها جُل مقابلاته التلفزيونية والرسمية، خاصة تلك التي مع زملائه في مجلس الشيوخ أو هيئة التدريس الجامعية. في شارع شعبي

جدًا اكتسب أبي شهرته لعمله في مستشفى خيري طبيبًا للأسنان، وتزوج من الآنسة الفاضلة ثريا عبد الحميد بنت الدكتور الشهير عبد الحميد حسّان صاحب عيادة الأسنان الخاصة المشهورة والتي تقع في نفس المنطقة التي يوجد بها المستشفى الشعبي. ليست الفيلا ملكًا لجدي لكنه تدخل في قرارات كثيرة تخصها. أعرف ذلك لأن أبي وأمي تعاركا كثيرًا بسبب تلك الأمور. في الساحة المودرن وقف أخي الضابط بلباسه الرسمي ممسكًا الباريه في يده اليسرى، ويده اليمنى في جيب بنطلونه. شاربه رفيع ولحيته حليقة. أخذ يقرعني تقريعًا شديدًا لأمر لم يحن بعد وقت ذكره لكن لا علاقة له بمشاجرة الباو مع فوزي النجار. المنطقة التي بها عيادة جدي ومن ثمّ عيادة أبي الأولى، لم تكن في تلك الأوقات منطقة شعبية كحالها الآن، على الأقل هذا ما أسمعه. الآن لا يبقى من ماضيها سوى جامع كبير -تم هدمه ثم إعادة بنائه قريبًا- وميدان ومستشفى بنك الدم، وداخل هذا الجامع يوجد مقام باسم صاحبه الشيخ حسانين يُقام له حضرة كل أحد ومولد سنوي باسمه في أغسطس. يكتبونها كذا بالألف. لطالما ضايقني هذا الألف القذر حين يحشره البقر وسط الكلام دون حاجة. وأنا متأكد من طريقة كتابة الاسم لأنه موجود في اسمي أيضًا: سامر سرور حسنين. أما أخي سمير فلا يضايقه الألف على الإطلاق. إنه غبي سفيه ابن عاهرة أشك أنه يستطيع كتابة اسمه حتى بألف أو دونه. تافه حقير كصندل مهترئ في قدم

فلاح أجرب دار المدينة كلها على عقبيه يلهث ككلب بحثًا عن عمل يُبقيه فيها ولم يجد سوى الوقوف على بوابة لعينة لبيت لعين ينبح على الطالع والنازل. أخي سمير الذي قلب الطاولة ظنًا منه أنه يمثل في فيلم سينمائي ومجرد أن هدأت المفاجأة التي كانت في صالحنا بالتأكيد، لم نجد لا صديقه السمين ولا غيره، ركضوا كالعِرس النجسة، ووجدت بغلًا يحملني بيد واحدة من قميصي ويرفعني في الهواء، دافعت عن نفسي قدر ما استطعت بأن وضعت يديّ على وجهي لكنه – ابن الكلاب المنجوس – لكمني في معدتي فبصقت دمًا في الحال، لعل انتقامي أن بصقتي تناثرت على صلعته العريضة ورأيت بعيني قطرات دم فاسدة تُلامس شفته القذرة. فألقاني أرضًا كخرقة قماش وسخة مقرفة، وأخذت أقيء. أما سمير فحاول لكم فوزي الذي ارتعد فور انقلاب الطاولة ونكس إلى وراء ثيرانه يختبئ ويُلقي أوامره بإبراحنا ضربًا. عراكٌ في حانة رخيصة هو بالضبط ما يليق لوصف هذه الحياة النَّجِسَة التي نعيشُ. سمير الذي حاول اللَّكْم كعاهرة، وصدِّقْني أنا هنا أسبُّ العاهرات، فأخي مفتول العضلات هذا الذي يستطيع طلاب الطب الأنجاس دراسة التشريح على جسده، كان منحوتًا عند خيرة أطباء التجميل في مدينتنا الداعرة. كل ذلك هراء.. زيف. منظر جميل تتحسّسُه العاهرات على الشاطئ ويصرخن له على الإنترنت. رغم أنه يقضي نصف يومه في الجيم، ولديه تِلال من البروتينات والمُحفّزات والمُضخّمات،

إلا أن حلوفًا واحدًا من حرّاس فوزي يكفي بالطبع لطحن عظامه كجوال قمح مُسرطن قمحي. لكنه واحدٌ في عينه وآخر في معدته ثم أمسكاه وهو يتأوّه. حاول أخي الإفلات والركض لكنهما ثبّتاه بسهولة، خرج فوزي من مخبئه وسط حلاليفه واقترب من أخي ثم صفعهُ. جاء أمن البار أخيرًا وأخذوا يأمرون الناس بإغلاق هواتفهم ومنع التصوير، لكن كان ذلك مستحيلًا، فانطفأت الكهرباء فجأةً وشعرتُ بيدٍ حلوفيّةٍ ترفعُني، أخذت أرتعش غاضبًا لاعنًا مرضي وخصيّتي، وأخي وأبي وجدي وكل الطب والهندسة في العالم، ثم ألقونا على الأرض وانهالوا فوقنا بالركلات. احتميتُ بسمير، وتذكرت حين كنت أفعل ذلك دائمًا ونحن أطفال إذا جاء أبي غاضبًا ليعاقبنا بعصاة الغليظة، فيظل سمير يتلقى الضربات وأنا أتأوّه في الخلف وأصرخ كأنني أتألم أشدّ الألم، ولا بد أن ذلك كان يثير شفقة أبي فيتوقّف. انتهت الحفلة ورقدنا بملابسنا المُمزقة كورقة تافهة. اعتدل بمعاناة وأخرج علبة سجائره التي تحطّمت، بالكاد استطاع إنقاذ نصف سيجارة منها. رأيته بصعوبة لانطفاء الكهرباء ونحن في حارة جانبية مظلمة خلف الفندق وقد اقترب الفجر. بحث في جيوبه عن ولّاعته ثم وجدها وأشعل السيجارة فبانت ملامحه قليلًا: كان يبتسم ابن الزانية. قلتُ وقد تملّكتني الرجفة فلم أعُدْ قادرًا على إخفائها في يدي وصوتي: أتبتسم يا ابن العاهرة؟ اتّسعتْ ابتسامته وقال: لم أنت خائف لهذا الحدّ؟ صوتُك أطربُ من صوت فريدة وهي

تحتي في اليخت! آه طبعًا. كيف تشرح كمدك لمثل هؤلاء البهائم؟ كيف يفهمون شيئًا بأمخاخهم الزّنخة المتحجّرة المتحجّرة التي تشبه المؤخّرات؟ أنا لستُ خائفًا على الإطلاق يا غبيّ. أنا غاضبٌ حدّ أنني لو قتلت أحدًا فلن أندم. قلت -ولا فائدة من الشرح-: على الأقل أنا بقيتُ جوارك، لست كأصحابك العرّس. قال وضحكته تنفجر من وسط سُعاله: أرأيت مؤنس وهو يقفز فوق الكرسي وينقلب على طاولة قبل أن يعدو ومؤخرته تترجرج؟ لم أقدر على الضحك لشدة ما سيطر عليّ الارتجاف، فقلتُ خانقًا: هاهاها مضحكٌ جدًّا! قال متجاهلا: غدًا النذل الوسخ سيقول إنه ذهب لجلب الإمدادات. قلت: إمدادات؟ أيّ إمدادات؟ قال: ربما كان سينادي أمه! خرجت ضحكتي متذبذبة وقصيرة بل وباردة. رقد على ظهره وناولني السيجارة، وقد قلت لك وسأظلّ أعيدها أنا لا أستطيع الرفض أبدًا. تناولت السيجارة وتنشقتُ نفسًا تافهًا فأصابني سُعالٌ حادّ. قال: ألا يبدو فوزي كسنجاب؟ الحق أنّه فعلًا يُشبه سنجابًا لعينًا أو فأرًا على أسوأ الاحتمالات. عادت إليّ تأثيرات الكحول فشعرت بغثيان ودوار خبيث. رقدتُ جوار سمير وحين رأيت السماء أصابتني حُمّى المشاعر وتمنّيتُ لو أصمتُ كي تظلّ هذه المشاعر حقيقيةً لكنني قلتُ لسمير بحماس أبله: لماذا لا يفعل الناس ذلك دائمًا؟ قال وهو ممسكٌ بالسيجارة دون تدخينها في يده اليُمنى ويده اليُسرى أسفل رأسه: يفعلون ماذا؟ قلتُ بنفس

الحماس: يرقدون في العتمة ويتأملون السماء. قال ببلاهة: وما الجديد؟ كل الناس تفعل ذلك! قلت: لا ليس هذا ما أعنيه. قال وهو يلتفت إليّ: هل أصابك السرطان في مخّك يا بني؟ أهذه أول مرة ترى النجوم؟ ألم تذهب معنا إلى الcamp؟ هل نسيتَ حين تبولتَ على حقيبة سامي متعمدًا؟ قلت ضاحكًا: نعم يستحقّها الوسخ. قال: هاهاها تذكرتُ منظرَهُ وهو يرميها بالتراب كأنما مسّها لعابُ كلب! كان يقول إن السرطان سُيصيبُه إذا لمسها. قلت وقد بدأ مؤشر الزيف يرن في رأسي: لكنني لم أقصد ذلك، أنت تافهٌ، ولو ضُربتَ على رأسك بمطرقة مطاطية سنسمع صوت بانج بانج. قال: What do you want? I don't understand. في الحقيقة، لقد رأيت السماء مرّاتٍ لا حصر لها ليلًا ونهارًا، لكنني لم أرها قطُّ بوضوح مثل تلك اللحظة، ولو جاء أحدٌ -قبلها- وقال لي: لماذا لا ننظر إلى السماء؟ لظننتُه أبلَه فقَدَ عقلَهُ. الصخب يملأُ المكان والدخان المسيل للدموع يحرق أعيننا، فنُغرق رؤوسنا بمزيد من البيبسي والكولا، ونلف الأوشحة المُبللة بالخلّ على وجوهنا ونُخرج بصلًا من جيوبنا ونشمُّهُ، نبكي، يزداد بكاؤنا، فلا نعرف أنبكي قتلانا أم نبكي المدينة، أم نبكي من ألم الحريق المُستعِر في وجوهنا، أم نبكي ذلك الألم الذي يُصاحِب معرفة الحقيقة: كوننا محابيس في أقفاص، كوننا أجسادًا قاصرة لا تستطيع الطيران وإن طارت فالصيّادون متستّرون وسط فروع الأشجار،

أعينهم على عدسات البنادق وأنفاسهم مكتومة تترقب، كوننا أصوات نشاز في سيمفونية البلادة، عاديّون لا أحد فينا سوبر مان، لا نملك سوى حسٍّ مبحوحٍ يصرخ ويطمسه ببساطة دويُّ رصاصات الخرطوش والقناصة والهتافات: سلمية سلمية. رغم كل شيء رأيتها.. كانت معنا، في معسكرنا نحن، شعرت بذلك، وسمعتها تردّد هتافاتنا وتحملها إلى بعيد. تربّت على أرواحنا، لا تخافوا، أنتم أعزّ من عصافير كثيرة. نعم رأيتها، لا أقصد الرؤية بالعين لكن رؤيتها بالقلب كأن النجوم هذه تنبعث من أنفاسك وحدك وكأن الكون كله مسخّرٌ لك، وهذه الرقعة الهائلة من السدوم والثقوب المعتمة والكواكب والأقمار والنجوم المنيرة ليست فقط إلا لك. إن جمالًا مثل هذا يطلُّ على مدينتنا كل ليلة ولا يراه أحد. قلت غاضبًا وعاودتني الرجفة: لأنك غبيٌّ لا تفهم! انظر، انظر إلى هذه السماء الفاتنة، هذه النجوم المتلألئة لمَ تظنها تلمع الآن؟ لمَ تتراقص أنوارها؟ هذه السماء ملكٌ لنا، زينةٌ فقط لنتأملها ونهدأ قليلًا، هذه الأنوار ترقص لنا ولا حاجة بها إلى نغم. يا للجمال السافر! كيف لا تراه؟ كيف لا يمسُّ قلبك الأسود؟ هذه النجوم تقدّم عرضًا فنيًا كل يوم ولا أحد يراها، ربما غدًا لن ترقص أبدًا كأيّ فنان يحترم ذاته. قال: لقد جعلت منك التاكيلا شاعرًا عربيدًا كعُمَر الخيّام. هببتُ على مؤخرتي واعتدلتُ وقلتُ بمنتهى الجدّيّة: سمير لماذا تفعل ذلك؟ قال: أفعل ماذا؟ تقصد المشاجرة؟ قلت: لا بل ذلك كله. صمتَ

قليلًا ثم قال بضيق: أعرف فيمَ تفكر: لماذا يخون زوجته بهذا الشكل القذر؟ صحيح؟ قلت: ليس هذا فقط، لكن على الأقل أجبْ على سؤال واحد لعين. قال: لو قلت لك لا أعرف هل تصدقني؟ أنا فعلًا لا أعرف. أحيانًا أتمنى لو أصابني مرضك – سامحني– ولم يجدوا له علاجًا قطّ. المشكلة أنك لا ترتوي أبدًا. تظلُّ تبحث عن شيء ما لا تعرف ما هو بالتحديد، لكن شعورك بنَقْصِه يقضُّ مضجعَك ويهدم أحلامك، أنا لا أعرف لكن أليست هذه الحياة؟ قلت راجفًا: أيّة حياة هذه التي لا نتوقف فيها عن البحث عن المجهول؟ قال: أنا أستيقظ صباحًا وجواري امرأةٌ، فيما مضى أحببتُها حبًّا لا ينتهي، لكنها الآن غريبة عني هي وصغيرها. أحبُّهُ نعم لكن ما الذي يمكنك فِعْلُه غير ذلك إزاء طفل صغير يحيط بقبضته الضعيفة إصبعك؟ لستَ مقصّرًا كزوج فأنا أضاجعها كل أسبوع مرتين. وأنا أبٌ لا يبخل على ابنه بشيء، لستُ مثل أبيك. قلت: نعم والمرسيدس هذه اشتريتها بغرَقِ مؤخرتك على كرسي المكتب! قال: أتظنّ أنه يتفضّل عليّ بشراء سيارة؟ انظر لغيره من الآباء وماذا يفعلون لأبنائهم. قلت: أبوك ابن كلب ونحن نعرف، لكنه ليس موضوعنا الآن. قال: وماذا تريدني أن أقول لك؟ أقسم لك أنني لا أعرف أيّ شيء. لدي كل شيء ورغم ذلك لستُ سعيدًا، لا أشعر بلذّة في هذه الحياة، أقول لك باختصار شديد ولعل قولي هو الحقيقة أنا أبحث عن اللذة المطلقة، ولا أقصد السعادة، أقصد الاستمتاع، أن أرى

مكانًا لم يَرَهُ بشرٌ قطّ، أن أضاجع امرأةً لم تُضاجِع رجلًا قبلي ولن تُضاجع بعدي، أن أجِدَ ذاتي في ذلك كله، بالضبط كالمدمن، ربما يمكنني الاكتفاء بحياتي كما هي –وهي جيدة جدًّا أعرف– لكنني لا أستطيع. هذا الجزء المبهم الغامض يحثُّني كل يوم للخروج والبحث عن مغامرة لذةٍ جديدةٍ، عن شعور لم أذُقْهُ من قبل، عن متعة لا تنتهي، لكن كل المُتَع تنتهي، ماذا أفعل؟ لو أن لذة شيءٍ واحدٍ تدوم للأبد لَما ظللتُ مخمورًا بهذا البحث السقيم. قلتُ: ولماذا صارت امرأتك فجأةً غريبةً عنك؟ أكان حبُّكما مزيفًا؟ قال: لا توجد لحظة فاصلة لكنه انسحب متسللًا ولم يَرَهُ أحد يفعل. You know? may be تزوجتها أصلًا because she was so hard to get. قصة حب سمير وزوجته مريم في وقتٍ ما كتبتْ عنها صحفُ المدينة. عرْضُهُ للزواج منها كان بإفطار ملأت كل شوارع مدينتنا. الكل ظنَّ أن سمير سيتوب حتمًا مع كل ذلك الحب. لكن الحب مزيفٌ بالطبع. كيف يزول شيءٌ حقيقيٌّ؟ إنما الزوال للزيف وحده. أبي السيد سرور حسنين عضوٌ مهمٌّ في حزب "الأف أح" الليبرالي التقدُّمي. مبدأه الثابت: كل إنسان حرّ يفعل ما يريد. وهذا ينطبق عليه طبعًا قبل أيّ أحد. يقول في أحد اجتماعات الحزب في الصالون الكلاسيك: نحن في عصر جديد فيه مرجعية الإنسان الحقيقية هي ذاته. إنَّ ما يُوقِفُ الإنسانَ الآن عن فِعْل أيّ شيءٍ إنما هو منظومته الأخلاقية، ودون هذه المنظومة لا القانون ولا

الدين يفعلان شيئًا، والإنسان لن يتورع عن فِعْل فظائع لا تخطر على بال وهو يسعى باحثًا عن سعادته الخاصة. والحقيقة أن أبي صاحب نكتة ويحبّ الفرفشة، والضحك لا يُغضِبُه إلا حين تقلُّ -يومًا واحدًا حتى- إيرادات مركزه الكبير لعلاج الأسنان المطلّ على النيل مباشرةً. يصير ذلك يومًا مفخَّمًا أسود فيعود للبيت غاضبًا وينفث مكنونَهُ على أوّل من يلقاه. زوجة أخي مريم طلبت مني الذهاب معها إلى مركز تحفيظ القرآن ذلك اليوم البغيض فتساءلتُ إن كانت قد قرّرتْ التوبة لكنها ضرَبَتْني برفقٍ بها المعهودة وقالت: ليس لي إنه لسليم. قلت لها: ولِمَ العجلة؟ أين سمير؟ قالت: سمير ذهب لمتابعة الكومباوند الجديد وربما يتأخّر عدة أيام. قلت: انتظريه فلن يطير الشيخ ابن الداعرة. قالت غاضبة وهي تسدُّ أذنيْ ابنها: ألفاظك! ولَعْنَتي في هذه الحياة أني لا أقول لا. قال سمير وهو يعتدل من نومته: هل فكرتْ مرةً في مضاجعة رجل؟ هذه المرة قلتُ لا بكل عزم. قلت: يا للقرف هل أنت شاذٌّ ابن زانية؟ قال ضاحكًا: يا متخلّف اسمه مِثْلي! يا لك من فلاح أخرق. قلت: مثلك أنت! قال: لا أقصد أنني أريدُ فِعْله، لكني أخبرك أنني فكرتُ فيه، لقد جربتُ كل شيء، أخذتُ فتاةً معي وبادلتُها في حفل لتبادل الزوجات، وأحضرتُ عشرات المومسات لغرفتي في نفس الوقت وأوقفتهن صفًا وضاجعتهن بالترتيب، ومارست الجنس أنا ورجل آخر على نفس الفتاة، ومارستُه مع فتاتين أيضًا، هل تعرف you are a lucky

bastard لأنك بلا قضيب. قلتُ: أنا لست كذلك يا جاهل. قال عابثًا: حقًا؟ قلت: أنت ابن زانية لعين. لو أن مرجعية الإنسان الحقيقية هي ذاته فإن ذاتي تقضي بإعدام كل سكان هذه المدينة. لو أن ذاتي هي كل شيء في هذا العالم لو أن هذا العالم مسخَّرٌ لي وحدي، لو أن سعادتي أهم من كل شيء آخر، لامتلكتُ هذه السماء الرائعة وحدي. قال: ما العيب في بحثي عن السعادة؟ أليس ذلك حال الإنسان؟ قلت: لكنك الآن تؤذي آخرين! أشاح بيده: ابني هذا سيكبر وسيبحث عن سعادته هو الآخر. ومريم حين تخرج من البيت لا أسألها أبدًا إلى أين. والبلهاء ذاهبة لدار تحفيظ القرآن. وسمير الداعر الزنيم ربما يضاجع الآن رجلًا في بخت. يكذب على امرأته كذبة ساذجة عن الانشغال في العمل هو الذي لا يفقه في الهندسة سوى مجموع زوايا المثلث. رأيته بعيني اللعينتين هاتين كل ليلة وهو يدخن الحشيش بأوراق الكتب، ويلف البراشيم بعناية لا ترقى حتى لعنايته بلفّ الحشيش. في أيّة لحظة بالتحديد صار أخي هذا "السمير"؟ في مرحلةٍ ما، كان يحمل حقيبته ويستعدّ للسفر إلى مكانٍ سريٍّ، يقف في غرفتي ويحاول إقناعي بالذهاب معه، شعيرات صغيرة نَمَتْ في أسفل ذقنه يمشّطها كل دقيقة، يغضُّ بصرَهُ إذا نظر إلى أبي، ويداعب شعر أختي ذات السنوات السبع وهو يقول: لماذا لا تُغطّين رأسك؟ لقد كبرتِ وصرتِ عروسة. اقتحم أبي الغرفة وأمسك حقيبته وألقاها في وجهه، قال: أنت لن تخرج من هذا

البيت سوى على المقابر. يمكنني الجزمُ أنّ أخي لم يختر هذا الموقف تجاه العالم إلا معاندةً لأبي. يقول أبي إن الإنسان حرٌّ، فيقول أخي إن الإنسان عبدٌ، يقول أبي الإنسان يفعل ما يريد فيقول أخي الإنسان يفعل ما يريده الله. لكن لا أحد فيهما يعني ما يقول. ينظر إليّ غاضبًا كأنني من وشيتُ به رغم أنني لم أفعل، بالطبع كان أبو رضا السائق، فأخي بمبلاهته أخبره أن يجهّز السيارة لينقله إلى ذلك المكان السريّ عند الفجر. هل كان ذلك جزءًا من رحلته في البحث عن اللذة؟! يمكنني القول بثقة إن سمير هو أكثرنا حبًا لأبي، وأكثرنا تشبّهًا به، فهو الولد البِكْر على كل حال، ولعله أراد دائمًا إبهار أبي بأن يختلف عنه، ظنًّا منه أن ذلك سيُكسبه احترامه أكثر مما لو أطاعه ومشى خلفهُ كظلٍّ. ونحن صغار يأمرنا أبي لا تلبس حذاءً ملوّنًا فلا يشتري سمير سوى أحذية ملوّنة. أفكّر أحيانًا أنه ربما كرهه فعلًا، وأراد الاختلاف عنه تمامًا ولا علاقة للاحترام بالموضوع. حاول مرات عديدة ولم يَنَلْ سوى الخذلان والتقريع فأدرك أنه مهما فعل فلن يكسب احترامه. أحسب أن كل ذلك لم يشغل أبي أو يسترعي انتباهه حتى، فكل ما أراده هو مظهر عائلة وقورة أرستقراطية تليقُ بالمجتمع الذي يُحاول البقاء فيه راسخًا. هكذا تخرّج سمير بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف. أي شرف يا مناجيس يا خصيان يا كلاب الحظائر. كم أستاذًا جامعيًا مرموقًا أخذ ظرفًا في الصالون المودرن من أمي وهو يشرب القهوة ويأكل الكرواسو

الفرنسي من مخبز فينيسيا. المهم أن المهندس تخرج وفتح شركة مقاولات كبيرة وأخذ مشاريع حكومية بمناقصات وهمية أو من تحت الترابيزة. مفهوم مفهوم. المحافظ وحاشيته كلها يُعالجون في مركز أبي مجانًا، مدير الأمن، مدير النادي، كلهم كلهم. طريقك مرسوم وما عليك إلا الخطو. وتلك ربما هي المرة الوحيدة التي قلتُ فيها لا بصوتٍ مسموع. ما يُشبه الـ"لا" على الأقل. بالطبع كما فهمتُ كان مُقدّرًا لي دخول كلية طب الأسنان و"التفوق فيها" بممتاز مع مرتبة الشرف، ومن ثمّ العمل فيها مدرسًا وفي المركز وربما في الحزب كذلك. قال لي أبي وأنا أستعدّ لدخول الثانوية: أنت حر، ادخل ما تشاء لكن أجِبْ على سؤالٍ واحد: ماذا تريد بعد التخرُّج؟ لم أعرف ماذا أريد، فقال أبي بعزم: إذن اترك نفسك لمن يعرف، كل أساتذة الكلية أصدقائي ولن تتعب على الإطلاق. أعرف أنك تحب القراءة مثلي، اسمع لو دخلت طب الأسنان سأجعلك أيضًا عضوًا معي في الحزب. ثم ربّتَ على كتفي وقال: أنت أقرب ابنٍ لي، لست مثل أخويك فأنت تشبهني أمّا هم فيُشبهون جدّك الـ... آه يا أولاد العاهرة كلكم. قال أيضًا: ستحمل أنت كل شيء بعدي. أنتَ ترى سمير غاوي مشاكل وليس عاقلًا بما يكفي ليتحمّل حتى مسؤولية قطة. وسامي كما تعرف فالتعليم ليس مجاله بالضبط، آه يقولون إن الذكاء يُورَّث من الأم، لذا أنت ترى سمير وسامي، أما أنت فقد ورثت ذكائي، أستطيع رؤية ذلك في لمعة عينك. أما أنا

فأشبه خليطًا من البجعة والسعدان، في قمة ظهري انحناءة يجعل لقفاي حدبة قصيرة فتظهر رقبتي متدلية دائمًا كالبجعة، وكتفاي متهدّلان فيحيلان ذراعيّ طويلين عن المعتاد كذراعيّ سعدان. وفوق ذلك كله في ذلك الوقت كنت نحيلًا كعنق زجاجة أما الآن فأنا نحيل كجرادة صفراء. لم أشبهه يومًا هو الممتلئ مثل دودة قزّ. حتى حين نحل قليلًا وصار يُشبه صرصار الحقل كنت نحلت أنا أيضًا أكثر منه. أظن أحيانًا أنّ مرضي أنقذني. يُلقون فوقهُ كل شيء ويبرّرون لي كل أفعالي بشفقة منافقة. لذا مريم لا تغضب حقيقةً حين أسبُّ أمامها وأمام سليم الصغير. يلعن الله إمبراطورية سين هذه. في المركز جلس سليم متلجلجًا –بين يدي شيخ معتق برائحة خنفرية كريهة تهيج الأنف، يرتدي قميصًا مخططًا واسعًا بأكمام وياقة مزرّرَيْن حتى يكاد يختنق، شعره قصير ووجهه حليق كمؤخرة طفل لعين– وهو يسمّع ما حفظهُ من القرآن. يكبُرون بسرعة أولاد الزواني. بالأمس فقط كنت أراه فسلةً صغيرةً تافهةً لا تتوقّف عن البكاء طول الليل والنهار. وقصة حبّ أبيه النذل وأمه البلهاء لا تزال أمام عيني كأنها الآن. مريم ليست مستوانا بالتأكيد لكنه قال: الوحيدة التي رفضتني. يا للإكليشيهات. فليلعن الله السينما وحقّ رأسي هذه. طاردها أيامًا وليالي وهي تأبى مجرد النظر له أو للمرسيدس التي يركبها. من سكان ميدان مشعل في البرج الذي يواجه المستشفى. أسائل نفسي لمَ ترضى بسمير رغم كل ما يفعله معها يوميًا من

خيانات وقلّة أصل؟ الشيخ ذو الرائحة الخنفرية الكريهة يهز رأسه راضيًا رغم خطأ سليم الواضح في تشكيل المُضاف إليه، عدّلت الخطأ لسليم فتنحنحَ الشيخ وقال بعبوس مفتعلٍ موجّهًا الكلام للطفل: أعِدْ. ثم بدأ يتلو السورة الجديدة ويعيدها آية آية برتابة وسليم يردد وراءه. قاطعت مريم الترتيل وقالت: لو سمحت يا سيدنا الشيخ ممكن تنجز هذه السورة وتنتقل معه إلى التي بعدها؟ قلت: يُنجز السورة؟ ماذا تعنين؟ ما الذي عليه فِعْلُه؟ قالت هامسةً: اسكت أنتَ. سليم متأخرٌ جدًا. ابن فاتن الآن في سورة عمّ. أذعنَ الشيخ بلا نقاشٍ بل وببعض الضجر كأنما اعتاد الأمر، ورتّل بهدوء، وسليم يردّد خلفَهُ آية بآية، وتشميرٌ أذني من أخطاء سليم والشيخ ابن الزانية يطوّح رأسه يمنةً ويسرةً متدروشًا كمن ينتشي بما يسمع وهو لا ينفكُ يردد: الله الله أحسنت أحسنت، ومريم تقف مبتسمةً سعيدةً كبقرة بلهاء هائمة بابنها الذي ينطق الضاد اللعينة خاءً. يا للطفل المسكين. يحفظ القرآن لأن ابن فاتن وصل لسورة النبأ، ويتعلّم السباحة في النادي لأن ابن زانية بطل المدينة في الكاراتيه، ويدرس في المدرسة البريطانية لأن ابن ساقطة يدرس في المدرسة الكورية. أولاد عواهر يضعون لك مسارَ سبقٍ لتركض فيه وتكبر كأيّ زنيم دعيٍّ فتدافع بشدة عن هذا المسار لاهثًا وكأن لهاثك من اختيارك أنت. هل سيكبر هؤلاء الصغار، أبناء الجيل ألفا، ويثورون على كل هذه المسارات المزيفة؟ لحسن الحظ أصابني

سرطان في خصيتي، لقد كنت سأجد حجة أفضل ولا أروع لعدم الإنجاب، أأحضر طفلًا مسكينًا لهذه المدينة المشؤومة لتضعهُ على مساراتها الأفعوانية فينكفئ على وجهه؟ ألا أكون ظالمًا ووغدًا بل وقاتلًا؟ يا للطفل المسكين عليه أن يصير بطلًا خارقًا لمدينة جوثام المشؤومة. طريقك مرسوم وما عليك إلا الخطو. ومن يستطيع قول لا في مدينتنا هذه؟ قلت ساخطًا للشيخ: علام تقول أحسنت؟ ألا تسمعه؟ والناسعات خرقًا؟ قال ابن الزانية لمريم: لو سمحت يا مدام خُذي البُك للاستراحة وخلونا نشوف شغلنا. شدتني من ذراعي وهي تعتذر للشيخ بتمتمات، ولم أعترض وتركتها تجرُّني. كان مركز التحفيظ يقع في الجانب الأيسر من نادي الجزيرة حيث ملاهي الأطفال وملاعب الكرة الخماسية وحمام السباحة. واستراحة المركز ليست بهذا المتسع، كراسي بُنيَّة وكراسي خضراء تتبعثر عليها نسوة مشؤومات يُديزنَ فناجين النميمة. طلبتْ لنفسها فنجانًا من القهوة ولي مثله وقالت بغباء: عشان تهدّي أعصابك. عشنا وشفنا القهوة تُشرب لتهدئة الأعصاب. جاءت القهوة سريعًا، فهي قهوة مُمَيْكَنة: يضع بذورًا سوداء في فتحة غامضة ثم يخرج السائل المفخم من الفتحة الأخرى. يا إلهي إنها أسوأ قهوة في العالم، إنها بولٌ حقيقيٌّ مقيتٌ، لو أن لي سُلطةً في هذه المدينة لمنعت ماكينات القهوة المغشوشة هذه تمامًا وأعدتُ الكنكة المقدَّسة إلى الوجود. قالت: ألا تعجبك القهوة؟ إنها أفضل قهوة في

النادي. قلت: طبعًا طبعًا أفضل قهوة، اتْفُلي على قبري اللعين لو وجدتِ لي واحدًا إن كانت هذه أصلًا قهوة. قالت: سامر أرجوك نحن في مكان عام. قلت: وماذا في ذلك؟ ألا يعرف أولاد الزواني هؤلاء أن هذه ليست قهوة حقيقية؟ قالت بصوت أعلى: سامر! الله! ثم إنك لا تتذوّق! قلت: لستُ بحاجةٍ للتذوّق لأعرف القهوة المزيّفة حين أراها. نظرت لي لائمةً فقلتُ حانقًا: طيب طيب سأشربها. لا أذكر بالضبط اليوم الذي جاء فيه الشيخ بدر إلى الفيلا، ولا يمكن الجزم بالضبط بصاحبة الدعوة، أمي أمْ مريم؟ كلتاهما وقفتا يومها تأمّلان أن ينجح في شفائي أو رُقيَتي وطرد العين التي تحطّم حياتي وأصابتني بالمرض. الشيخ بدر لم يكن أصلا إمامًا ولا محفّظًا، كان على حدّ قوله: من الراسخين في المعصية. ومما فهمته أنه كان قاطع طريق، يسكن في شارع الكامب –يُقال إنه سُمّي كذلك لأنه كان ثكنات عسكرية للإنجليز– يضع موسًا في فمه ويقف في الأركان منتظرًا مَنْ دعت عليه أمه بأن يُلاقي أولاد الحرام. يقول خافضًا بصرَهُ إن الله هداه فقرّر استثمار كل الأموال التي معه، والتي كسبها من سرقة الناس وتجارة المخدرات بالطبع، وبدأ مشروعًا للفاكهة، أطلق لحيته، وأضاف لهيبة المفتري هيبة الإمام، وفي منطقة شعبية مثل شارع الكامب لم يكن غريبًا إطلاقًا أن يزداد احترام الناس له، وأن يتغافلوا تمامًا عن ماضيه الدنس. يقول: يا أستاذ سامر المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله. ازدهرت تجارته فقرر توسيع مشروعه

فكبرت الغربة إلى دكان، والدكان إلى محل، والمحل إلى محلّين، فكهاني وعصارة قصب وفواكه طبيعية، فجأة أيضًا توقفت كل عربات الفكهانية عن المجيء للمنطقة، يقول: ومن يتّقِ الله يجعلْ له مَخْرَجا. سبحان الله! من غير سبب يا أستاذ أقول لك. هكذا في يوم وليلة توقّفوا عن المجيء وصرت الوحيد. لكن أخوك ابن بلد ويعرف الناس وحالهم، لذا لم أغالِ في الأسعار رغم كوني الوحيد في المنطقة. أثناء البكاء والهتافات التي ترجُّ المدينة كان بدر لا يزال يضع موسًا في فمه ومطواة في جيبه، يقول: يا أستاذ ضعْ نفسك مكاني، أمامي فرصة لأبدأ حياة جديدة هل أتركها؟ وعدوني أن يبدأوا معي صفحة جديدة. لذا أخرج الموس وفتح المطواة وانطلق وسط الهاتفين يهتف هتافهم وينادي مثلهم، ثم يطعن هذا ويحفر بالموس في جسد ذاك ويتحرّش بهذه ويمسك آخر منا ديًا: جاسوس فينهال الجميع فوقه ضربًا، ثم حين تهدأ الأجواء قليلًا يضرب حجرًا على المعسكر الآخر فيضطرون للدفاع عن أنفسهم بالرصاص الحي والقنابل. أظن أن زيارته كانت بعد معرفتي بالمرض، قال الطبيب: صحتك ممتازة إلا أن لديك سرطانًا في الخصية، لا عليك، أمرهُ بسيطٌ، سنستأصلها فقط. بهدوء قالت مريم: أعرف أن سميرًا ليس في العمل كما ادّعى. قلت بهدوء أيضًا: نعم على الأغلب. قالت: وأعرف أيضًا فريدة أبو الدهب، وأعرف العلقة التي أكلتماها في البار. قلت: ما شاء الله عندك بلورة

سحرية؟ قالت: الأمر لا يحتاج إلى بلورة. هل تعرف لمَ كنت أرفض سمير؟ لست بحاجة لأخبرك أنني من أسرة أقل منكم ماديًا بكثير، وكان أبواي يلعناني كل يوم لرفضي، بالطبع من يرفض بكري عائلة سرور حسنين؟ لكني رأيت في عينيه هذه النظرة العابثة، قال إنه يحبني ولم أصدق. عرفت أني لو منحته نظرةً واحدةً فسينفضّ عني للأبد. كنت حمقاء ساذجة بأحلام وردية. ظننت الزواج سيغيّرُهُ، ظننت أني سأستطيع تغييره، لكن الحقيقة لا أحد يتغيّر لا الآن ولا لاحقًا. قلت: ليس بالضرورة. قالت: قطعًا ليس بالضرورة، فأنا على الأقل حسبتُ أنني سأحبُّه للأبد، وحين غادر البيت بعد أسبوع من زواجنا متعلّلًا بالعمل عرفتُ أنه يكذب، ظننتُ أنني لستُ كافيةً له لكن اتّضح أنه لا يكفيه شيء، وقلت لنفسي المهم أنه يعود إليّ كل مساء، وأمي تقول لي: القديمة تِخلّى ولو كانت وخلة. رشفت رشفةً من القهوة فانبعج وجهي وتفلتُها رغم أني لم أذُقّها، هذه أسوأ قهوة لعينة بنت عا.. سألتُ: هل أحببته حقًا؟ قالت: طبعًا تفكّر مثل طنط. كنت أظنّك تعرفني حقًا. أنا لم أتزوج سمير لأجل أمواله، أظنّ أن ثمة وقت أحبّني فيه هو أيضًا حبًا حقيقيًا، وأتخيّل أحيانًا أني أرى هذا الإنسان القديم من فينة لأخرى. في بداية زواجنا حسبتني أعرفه وأعرف ما يريد، لكنني بعد ذلك لم أدرك بالضبط ما الذي يريده لأنه هو نفسه يجهلُه. قالت لي أمي: الرجال الملاعين يحبّون العاهرات. قلت مقلّدًا إيّاها: ألفاظك!

قالت: يا سمج! قالت كوني لزوجك عاهرة وكنت. أعرف أنه لا يليق بي الحديث معك في هذه الأمور، لكنك بمثابة أختي – sorry يعني– خصوصًا في حالتك. قلتُ رافعًا حاجبيَّ مندهشًا: حالتي؟ قالت: أقصد مرضك وكذا. قالت أمي أنجبي طفلًا فالرجال تربطهم الأطفال، فأنجبنا طفلًا، وحين رأيته يحمله وفي عينيه تلك السعادة، قلت نعم سيتغيّر لأجل الرضيع، لكنه بعد فترة لم يَعُدْ يرى ابنه إلا لِمامًا. إنه يُضاجعني كما لو كان يؤدّي واجبًا باليدًا عقيمًا، يبتسم في وجهي وينادي باسمي كي يؤكّد لي أنه لا يفكّر بغيري، ينام فوقي وينظر في عيني فأتأوّه لأجل أن يشعر بالرضا عن نفسه. أقول يهمُّه ألا يقصّر في حقي فليكن. لا يزال يهتم بأمري. سمير الطفل الأناني الذي لا يقبل أن ترفضه واحدة لا يفكّر في شهوته ويفكّر فيَّ أنا. أليس ذلك حبًّا؟ أو حتى هربًا منه؟ وأنا غبيّة وأحبُّه فتنقلب آهاتي المزيّفة لآهات حقيقية حين ألمح في عينه سمير القديم. لكن هذا الوميض يختفي فجأة كما ظهر وأجده ينقلب جواري وينام متمددًا يحتضنني لكن بلا احتواء حقيقي. أظل أتخيل فيمَ يفكر ثم أمسكه من ذقنه وألفُّهُ ناحيتي وأقول له: انظرْ إليَّ أنت لم تَعُدْ تنظر إليَّ. يلفّ ناحيتي ثم يختفي كأنّ روحه تسرّبت من عينيه وأعرف أنه ليس هنا. أتعرف لو أنه حتى متزوّج من أخرى وسعيد معها فصدّقني أنا سأتقبّل ذلك. ثم بكت وأغرق الكُحْل وجنتها، فأمسكتُ طرف حجابها ومسحتُ وجهها وقلت: يا للقرف الآن

ستخرجين برابير خضراء من أنفك. ضحِكتْ من وسط دموعها وأمسكتْ يدي وضغطتْ عليها وقالت: شكرًا لأنك سمعتني. قلت لها: هل تعرفين ما الحلّ؟ قالت: ماذا؟ قلت: أن تنظري إلى السماء، ستجدين كل الإجابات هناك. قالت بامتعاض: أيّ سماء؟ قلتُ بحماسٍ غبيٍّ: هذا سؤال حقيقي جدًّا فهناك في الواقع سماءان، واحدة يعرفها كل الناس وأخرى أعرفها أنا وحدي. قالت: ولأيّهما أنظر إذن؟ قلت: لسمائي طبعًا. قالت بحزن: وكيف أنظر إليها وأنت تعرفها وحدك؟ في تلك الليلة حاولت مريم الانتحار للمرة الثالثة. أمسكتها أم رضا وهي تحاول إلقاء نفسها من سطح الفيلا. محاولتها الأولى أيضًا من فوق السطح لكنها لم تكن وحدها، كانت تحتضن رضيعها –آنذاك– سليم، وتستعد للقفز به. يومها لم ينقذها إلا جوع الصغير، تذكّرت فجأةً أنه لا يمكن للمرء الموت وهو جائع فنزلت لتُحضِر له رضْعَتَهُ. هل تُعتبر تلك محاولة؟ نعم لأنها بعد إطعام الصغير صعدتْ مرةً أخرى لكنها وجدتْ سمير هناك فوق السطح. المرة الثانية حاولت قطع شرايين يدها اليمنى، يعني حتى في الانتحار هم أجهل من العِرْس، عليكِ بقطع شرايين اليسرى هذا أمرٌ يعرفه الحمقى لكنهم دون ذلك حتى. هل قطعتِ اليُمْنى لأنها لا تريد الموت حقًا؟ أم لأنها فقط غبيّةٌ بلهاء؟ لن نعرف أبدًا صدّقني. المرة الثالثة أمسكتْها أم رضا وأخذت تنعق كالغراب: يا لهوي يا لهوي. يقول أبو رضا –الذي هو أول من

maktabbah.blogspot.com

هرع إلى صراخ زوجته- أنه رأى أم رضا تمسك -يدوبك- بطرف فستان الستّ مريم. وأنه لولا قوّته وسرعةُ تصرُّفه في جذب الست أم سليم من قدميها -لا مؤاخذة يعني- لانزلقت يد أمّ رضا وسقطت الست أم سليم مفشفشة الرأس والعياذ بالله من الشيطان الرجيم. في صالة الڤيلا جلست مريم تبكي وأخذ أبو رضا يعيد ويزيد فيما حدث بحثًا عن مكافأة ما. جاء أبي ملهوفًا وسأل أول ما سأل عن سليم، أخبرته أنه بخير، نظر لي نظرة طويلة مقيتة وقال: الحمد لله إنّ دكتور سليم كويس، ابن زانية! ثم ذهب إلى مريم وأمسك بساعدها ووضع يده على جبهتها، ثم قال: تمام تمام، نبضُها متسارعٌ قليلًا لكن هذا بسبب الأدرينالين. ثم رنّت على وجنتها وقال: أيصحُّ ذلك يا مريم؟ مَن ضايقك في هذا المنزل؟ مزّتْ أختي سيليا هي وصديقها على الجمع، لم نقف حتى لتعرف ما يحدث، صعدت غرفتها بهدوء. وأمي حين لمحت اهتمام أبي بمريم بدأت الدراما. تعالت أنفاسها وتسارعت وأخذت تنخر قليلًا ثم سقطت على الأرض مغشيًا عليها، لم يتحرّك أحدُنا ناحيتها ولا حتى أم رضا، ثم حين غادر أبي المكان قامت أمي كأنّ شيئًا لم يكن، وصعدت إلى غرفتها. في الصالون المودرن وقف سامي ممسكًا بجريدة من جرائد المدينة الشهيرة، شارتُهُ الرفيع يظهر كبصقةٍ فوق شفته العليا، وجلس سمير مشعلًا سيجارةً يملأ كرسيّه تمامًا منفرجَ الساقين مائلًا برأسه للوراء كأنما يسترخي على كرسي البحر. وقفتُ أنا أيضًا لأن سامي

أمرني بذلك وأنا أجبَنُ من قول لا. قال الطبيب الزفيم ذو النظارات المقعّرة والشارب الفخم: يجب أن نفتح ونستأصل خصيتك قبل أن يمتدّ الورم أكثر من ذلك. وحتى في هذه لم أجرؤ على قول لا. وضعوا منات الإبر في جسدي وأوصلوا خصيتي بألف جهاز، وأرى السائل النجس ينزلق برعونة من الفتحة الصغيرة، وينساب في فراغ الجاذبية حتى يصلَ إلى مدخل دمي. أجلس بالساعات متلقّيًا سوائل فوق سوائل وإبر خلف إبر، شعري يهرب كمتولٍ يوم الزحف يرى الموت نصب عينيه، وحاجباي يتساقطان كورق خريف مهترئ فأبدو كرأس سلحفاة ميتة. وهل خبّرني أحدٌ لأقول لا؟ تقف أمي جواري وتبكي فيشتتني ذلك عن الكتاب الذي أقرأه. وكنت أبكي أنا أيضًا أحيانًا ليس من الألم لكن دون سببٍ محدد. فتقول أمي: لا! تماسك لقد أنجبتُ رجلًا! الرجال لا يبكون! مالك تبكي كالنساء؟ وماذا يكون ألمك جوار ألمي حين أنجبتكم واحدًا واحدًا! لم يكن العلم قد تقدّم والبنات تسهوكت مثل زوجة أخيك الأفعى. كل واحدة تريد ولادة قيصرية كأن على رجلها نقش الحنة. ثم يقلن إنهن يُحببْنَ أبناءهن. لا أم تعرف الحب مثل من أنجبت بولادة طبيعية، من رأت قطعة لحم صغيرة تخرج من بطنها وتملأ العالم ضجيجًا. لكن حظي قليلٌ في هذه الدنيا. ذلك الله وهذه حكمته. أنا صابرة ومحتسبة. أنجبت ثلاثة بغال يسدُّون عين الشمس وظننت أن لي سندًا في هذه الحياة. لكنكم كلكم

خذلتموني. أبوك يتزوج عليّ تلك الخادمة الحقيرة! أنا بنت الدكتور عبد الحميد حسّان! أهم دكتور أسنان في هذه المدينة قبل أن يعرف أبوكم فكّ الخطّ حتى. أبي هو الذي جعله في هذا الهيلمان، وآخرتها يتزوج عليّ خادمة ابن الكلب. أنا! أنا ثريا عبد الحميد التي كانت الأولى على دفعتها في طب الأسنان وأمامها المستقبل كله، عَرَضَتْ عليّ جامعاتٌ في بريطانيا وأمريكا الدراسة فيها وإكمال حياتي، لكنني رفضتُ كل ذلك وبقيتُ جوار أبيك المُعيد الكحيان الشحّاذ. هل تعرف كم جنتلمان رفضتُ في حياتي لأجل أبيك الفلاح؟ وتكون هذه مكافأتي ومكافأة أبي الذي جعل منه شيئًا. توقفتُ عن الدراسة والتدريس إذعانًا لرغبته واكتفيتُ بدكتوراة تافهة. كان يغار مني، عرفت ذلك الآن، لكني عرفته متأخرًا جدًا. طبعًا يغار، فأنا أشطر منه بمراحل ولا بد أنه وجد ذكائي تهديدًا حقيقيًا له في الجامعة. أفنيتُ شبابي وعمري أربّي له أولاده، وفي النهاية لا يُنصفني أحد. وأنتَ! أنتَ حسبتُك ستُنصِفُني دونهم فأنت أقربهم لي بل وأشبههم بي، لديك عيناي وحاجباي وحتى أنفي الطويل، وبالطبع لديك ذكائي، الحمد لله، لا عليك ستعوّض كل شيء، الأيام أمامك، يلعن الله المرض، سامحنا يا ولدي لم نكن نعرف، عين وصابتك، طول عمرك نجمك خفيف. لكن مرض ولّا غيره كيف لا تنصف أمك؟ كيف لا يقف واحدٌ فيكم لأبيه ويقول: عيب يا بابا، على الأقل احترم جدي الذي بين الحياة والموت. والسائل اللعين يقطر ببطء. كل

تلك القصة الطويلة حكاها لي ليخبرني ببساطةٍ أنه قادرٌ على سحقي ولن يطرف له جفن. قلت وأنا أرتجف: أنا لا أخاف منك. قال: يا أستاذ سامر أستغفر الله أنا لا أقصد ذلك. أنا أقصد أني مجرد شخص عادي هداه الله، ولن أفعل شيئًا سوى قول بعض الأدعية التي أحفظها. ثم أمسكني بقوة وأجلسني وأخذ يتمتم وهو يضع يده على رأسي بحزم، حاولت المقاومة لكنه أبرق لي بعينيه ثم أغمضهما واندمج فيما يقول. وقف سامي يضرب الجريدة في عمود جانبي وهو يقول منفعلًا: إلى متى ستصران على تدمير حياتي؟ نفث سمير الدخان من فمه وهو يميل برأسه قليلًا لأسفل لينظر لسامي، وارتعشتُ أنا غيظًا. سامي سرور سيادة النقيب يزعق فينا بسبب صورتنا في الجريدة من مشاجرة البار، ويشاركها في الإطار صور صغيرة متنوّعة لسامي وهو يقف بشورت أصفر مخنّث، عاري الصدر تجاوره فريدة أبو الدهب بالبكيني في صورة، وصور أخرى مع فتيات أخريات في أوضاع داعرة مثل ذلك. سامي أصغرنا -نحن الصبيان- ولم يشأ شيئًا من صغره إلا وحصل عليه. لم يكن يبكي مثل سمير حتى تذعن أمي. بل كان -ببساطة بنت زانية- يذهب ويأخذ ما يريد. أثناء رقودي على السرير شاحب الوجه اقترب مني وهو يُحاول ألا يلمسني. يرتدي كمامةً على وجهه كما لو أنه يُواجه مريضًا بالجذام. لا تعرف أهو صارمٌ دائمًا أم أنّ تلك طبقة صوته اللعينة. قال: عليك أن تكون قويًا، لا تجعل المرض يهزمك.

حتى الغضب وقتها لم أقوَ عليه. رفعتُ إصبعي الوسطى بمعافاة، لكنه لم يرتفع سوى مليمتر تافه فلم يره. قال: القوة وحدها هي ما تصنع الإنسان. أعرف أنك لست مثل أخيك المخنّث، لو تترك فقط هذه الكتب التي تفسد عقلك لاستقام حالُك. جاءت الممرضة وعدّلتْ من وضع الوسادة خلف رأسي وضبطتْ بعض الأشياء ثم قالت له: لا مؤاخذة يا باشا. أماءَ إيماءةً تافهةً لا تُذكر، قال: ألا تحبّ القصص المصوّرة؟ هذه السخافات! على الأقل استفِدْ منها وكُنْ سبايدر مان أو الرجل الأخضر. لا تجعل هذا المرض يحطمك. ثم جلس على كرسي الزوّار ووضع رجلًا فوق أخرى وأنزل كمامته وأشعل سيجارة، نظرت له الممرضة برجاءٍ لكنه بادلها نظرةً باردةً فلملمتْ نفسها وخرجتْ من الغرفة. هندامه العسكريّ جعلني أتخيّله كهتلر معتوه، خاصةً مع شاربه الرفيع الشبيه بشارب أحمد عرابي. لا ينقصه إلا طربوش باي. أكمل: بصراحة لا يفرق معي أن تعيش أو تموت. أنت تعرف ذلك. فلا أنتَ ولا أخوك المخنث ولا أختك الفاسقة تستحقّون جنيهًا واحدًا من الميراث. أنا أنصحك لنفسك، وإكرامًا ليوم حين كنا صغارًا شعرت فيه أنك تحبني فعلًا. لكنك تعرف حال الدنيا لا مجال فيها للحب ولا يحزنون. ربّتَ على سلاحه في جانبه وقال: هذا فقط يتكلم، هذا لسان العصر الجديد. أتحسب أباك يفعل كل ما يفعله لأجل الخير والدنيا والناس والمدينة؟ طبعًا لا! أنت تعرف وأنا أعرف وهو يعرف

والمدينة تعرف. إنما يفعله لأجل الكرسي والحصانة والسُلطة، لأجل القوة. أرأيت؟ أنا لستُ غبيًا ولستُ غريبًا جدًا عنه، رغم ما بدا لكم. سكتّ وأخذ يدخّن سيجارته فأحاط بي الدخان وسعلتُ بشدة حتى بصقتُ دمًا. ابتسم ابتسامة هازئة وقام، ثم نفخ مزيدًا من الدخان في وجهي قائلًا وهو يغادر: Rest in peace sissy. سامي أيضًا تعليمُهُ مستوردٌ بالشوكولا السويسرية رغم غبائه الفطريّ وفشَلِه الدراسيّ المُحتّم. كان محبًا رهيبًا لأغاني الراب. سنوب دوج وليل جون وشامليونير وفيفتي سينت. لم يستأذن أبدًا ليفعل شيء ما. فحين يرغب في سيارة أبيه الجيب شيروكي ينزل ويأخذها. حتى أبي لم يقل له يومًا لا. وأظن أن تلك آفة مدينتنا المشؤومة؛ فلا أحدٌ يقول لا على شيء. لعلّهُ أملٌ أن يكون هو طبيب الأسنان القادم الذي فشلت أنا في كَوْنه. ثلاث سنوات قضيتُها في كلية طب الأسنان لكني منذ السنة الأولى عرفت أنني لن أكون طبيب الأسنان الزنيم. في السنة الأولى طبعًا تخرجت بامتياز مع مرتبة الشرف ابن الزانية. في السنة الثانية لم أحتمل أكثر من ذلك، أنا لا أطيق رؤية الدم ولا تشريح الإنسان، ورغم ذلك تخرجت بامتياز مع مرتبة الشرف ابن الزانية. وأقسم لك إنني حتى لم أعرف أسماء من درّسوني في تلك السنة، لكن هذه ليست مشكلة فأبي رئيس الجامعة كلها ومن يقدر على قول شيء؟! في السنة الثالثة لم أذهب إلى الامتحانات، وانهالت الاتصالات على أبي، رغم كل سلطتهم لا يمكنهم إعطائي

امتيازًا مع مرتبة الشرف ابن الزانية لأنني لم أحضر الامتحانات. مسرحية عبثية. جاء أبي غاضبًا لغرفتي: ماذا بك؟ قلت: لا شيء. قال وهو واقف على باب الغرفة: لماذا لا تذهب إلى الامتحانات؟ هل اغتصبتك أحد؟ لم أرُدَّ وبدأتُ أرتجفُ كمدًا، قال وقد ازداد غضبًا: لا تكن جبانًا كالمرة، حسّسني مرة إنك راجل. طبعًا وهل سيُفلح أحد أنجبتهُ ستّ ثريا؟ اسمع، لقد رتّب لك عميد الكلية امتحانات خاصة ستذهب إليها ورجلك فوق رقبتك هل تفهم؟ صفع الباب في وجهي، وسمعت أمي تصرخ في الخارج: وما لهم أولاد الستّ ثريا؟ أليست هي من أفنت عمرها عليهم؟ صرخ أبي: أليست تربيتك الماسخة؟ واحد فاشل مخلص فلوسي على الشراميط وواحد مِنسُون والثالث بلطجي. قالت: وما ذنبهم؟! هم يشبهون أباهم! قال: احترمي نفسك يا ثريا وإلا... قاطعته بصريخها: طبعًا ما الست ثريا راحت عليها! نسيتْ الست ثريا هانم التي حفيت لأجل أن تتزوجها يا جربوع والتي لولاها، ولولا أبوها الدكتور عبد الحميد حسان، لما عرفتك أمك حتى يا ابن الكلب. ثم دخلت أمي لغرفتي تعانقني وأنا أرتجف من شدة الغضب. قالت: يا حبيبي لا تخف هكذا، لن يجبرك أحد على شيء. قلت وصوتي يرتعش من الغيظ: لا أريد البقاء في هذه الجامعة ولا وسط هؤلاء الطلاب. قالت بحنو -لا يمكنك الجزم أبدًا بحقيقته-: قلت لأبيك أن يدخلك جامعة أجنبية بدلًا من الحكومية هذه، لكنه بخيل ابن كلب. هل يتنمر عليك الطلبة

هناك؟ قلت وأنا أضم قبضتي: لا، لكنهم يمثلون ليسوا هناك لتلقي العلم. هذه الجامعة مسرحية كبيرة يمثل فيها الأساتذة أنهم يُدرّسون ويمثّل الطلبة أنهم يتعلمون! قالت بحذر: ولد! هل انضممت للشيوعيين؟ وأمي طبعًا كما فهمت أجهل من حشرة. قالت: الفتى المحترم يجب أن يكمل تعليمه. لن نضغط عليك لتختار تخصصًا لا تريده. لكنك حفيد الدكتور عبد الحميد حسّان؛ ماذا يقول الناس؟ اختر فقط التخصص الذي تريده وإن لم يكن موجودًا في مدينتنا سأجعل جدك يبني لك كلية خصيصا. قرأتُ ذات مرة أن أهم جامعة في مدينتنا والمكون اسمها من ثلاثة حروف أجنبية رجيمة، ترتيبها الأربعمائة وعشرون على مستوى جامعات العالم، تخيل معي يا عزيزي! الأربعمائة وعشرون بنت الزانية! وخريجوها يكادون يبصقون على غيرهم مختالين بهذه الحروف الثلاثة أبناء الدناسة! خذ عندك سمير مثلًا لديه شركة عقارات ضخمة وتمتلك أكثر من مجمع سكني لعين في كل أنحاء المعمورة. سمير هذا لا يفقه أن واحدًا زائد آخر يساوي اثنين، لكنه خريج ثلاثة حروف رجيمة بنت عاهرة تفتح له الأبواب، يوظف لديه خريجي جامعة مدينتنا ويعطيهم رواتب زهيدة، رغم أنهم من يقومون بكل العمل الحقيقي ويسفون التراب. طبعًا ابن سرور حسنين الأستاذ الدكتور عضو المجلس الموقر ورئيس الجامعة الحكومية العريقة. سأجعل جدك يبني لك كلية خصيصا. جدي الذي لا

أتذكر مطلقًا أني سمعته يتكلم منذ وعيت الدنيا. يسير بعكازه الطبي في أنحاء البيت ويقف كل حين ينظر لك نظرة لعينة زانية تثقب ملابسك الداخلية وكأنك تدين له بشيء. لم أسمع عنه سوى من حكايات أمي وأحيانًا من حكايات الناس، ولولا أني رأيته ورأيت صوره في جرائد ومجلات قديمة أخفيتها في غرفتي من مكتبته القديمة، لظننت أن وجوده ذاته أسطورة. يسيل لعابه فهو لا يملك التحكم فيه وترتعش يده وهو واقف أمام غرفة سيليا يشاهدها وهي تضاجع فنّ آخر. غرفته تجاور غرفتها وغرفتي تقابلهما فكنت حين أسمع تأوهاتها أخرج لأرى الشاب الجديد، فأجد جدي يفتح باب غرفتها ويقف بيد مرتعشة وبفم يزبد. قلت لأمي: إن جدي يحتضر منذ رأيته، لا أظنه يقدر على شيء. قالت غاضبة: جدك هذا كان يملك نصف مدينتنا وكان رجل خير وتحلف بكرمه أجيال وراء أجيال. تأدب في الحديث عنه. وكيف أصدق ذلك؟ وأنا أراها هي -أمي المحترمة- تخدعني أنا وإخوتي وتقابل عشيقها الداعر تحت أعيننا. كيف ينجب جَدٌ عظيمٌ محبٌ للخير يتغنى بسيرته الناس كأساطير ألف ليلة وليلة- امرأة مثل أمي؟ تأخذنا معها إلى المطعم الموجود على سفينة راسية على بر النيل وتجلس متوترة، تمسك هاتفها كل حين وتنظر فيه وفي يدها هدية مغلفة في كيس هدايا عليه قلوب حمراء. تأمرني أن آخذ سيليا الصغيرة وأذهب لألاعبها في منطقة الأطفال. تحاول أن تبدو طبيعية وهي تراقب رجلًا طويلًا

يرتدي بدلة بلون أزرق فج على قميص أبيض وحذاء جملي يجلس على طاولة مقابلة لها. ابتسامات وغمزات ورسائل الهاتفين لا تتوقف، والنظرات المتبادلة بين كل رسالة داعرة وأخرى لا تحتاج لشيرلوك هولمز لاكتشاف الجريمة. سامي حدّق في أمي بغضب ثم أبرق عينيه للرجل ابن الزانية، حتى سيليا الصغيرة فهمت فسألتني: أبيه سيمو هل ماما ستتزوج عمو؟ وأشارت بإصبعها الصغير، ورغم أني أكبرها بأعوام عديدة لم أجد إجابة واضحة لسؤالها. سمير لم يصدقنا حين أخبرناه وقال: أمنا محترمة يستحيل أن تفعل ذلك. ثم هي كبيرة وأدرى بتصرفاتها! ليس من شأننا! زجرت أمي سامي فجأةً ثم جمعتنا لنستعد للذهاب، ثم ببلاهةٍ لا تُصدق تركت حقيبة الهدايا اللعينة فوق كرسيها كأنها نسيتها. حدق سامي في الرجل بعصبية بالغة حتى إن الرجل خشي رفع بصره عن طاولته، وأخذ يتأمل قهوته كأنه يحضر فيها الدكتوراة. قلت لأمي ببراءة بنت زانية: أمي نسيت حقيبتك. قالت بعصبية: لم أنسَ شيئًا. فأمسكتُ بالحقيبة وقلت: لا، هذه. فجأة بدت كمن تحطم تمامًا وتخلل الإحباط وجهها. أمسكتُ حقيبة الهدايا ولملمتنا وخرجنا من المطعم. وددت أحيانًا لو كان ذلك فيلمًا عربيًا قديمًا فنكتشف أن ذلك الرجل هو أخوها الذي حرمه جدنا من الميراث، لكنه كان شابًا نضرًا لعينًا لا ينقصه شيء. هممت بالمغادرة فقال سامي غاضبًا: إلى أين أيها الجبان؟ تدفع زوجة أخيك للانتحار

وتهرب الآن؟ قلت ورجفة صوتي تغضبني أكثر: أدفعها للانتحار؟ من قال هذه القذارة؟ قال: هي نفسها قالت يا كلب يا نجس فاجلس مكانك حتى أنتهي من كلامي. ثم نظر إلى سمير: ولو أن أحدًا دفعها للانتحار حقًا فهو أنت بتصرفاتك البلهاء. قلت: هل نقلوك لشرطة النساء والسهرة؟ ضرب سامي الطاولة بالجريدة بعنف متزايد ووجهه يحمر فتراجعت خطوة وهو يصرخ: يلعن أباك أنت وهو وكل هذا البيت فردًا فردًا، لا يهمني انتحرت زوجتك أو احترقت هي وابنها، لا يهمني أمكم الوسخة ادعت المرض أو سقطت قتيلة حتى، لا يهمني أختكم العاهرة من تضاجع، لا يهمني شيء سوى أن تبتعدوا عني وعن حياتي هل تفهمون يا حثالة؟ قال سمير وهو لا يزال هادئًا ينفث الدخان: واضح أن سيادة اللواء أثقل العيار قليلًا هذه المرة. أخرج سامي مسدسه من جرابه وصوبه ناحية سمير والجنون يتطاير من عينه: أعد كلامك إن كنت تجرؤ يا ابن العاهرة. في تلك اللحظة ندبت أم رضا وأظنها كانت تتسمع ما يحدث من خلف ستارة أو عمود. هذه الفيلا المشؤومة يتردد فيها الكلام كما لو أنها راديو صغير لعين. وقفت أطرق على باب غرفة مريم وسمير، لم أسمع ردًا فأعدت الطرق بصوت أعلى، جاء صوتها هزيلًا: أرجوكم اتركوني سأرتاح وأكون بخير. قلت: أنا سامر يا بلهاء يا بقرة. افتحي فورًا. فتحت الباب فدخلت ورأيت عينيها حمراوين ومسارات الدموع تحفر أخاديد على وجنتيها. قلت: سامي ابن

العاهرة يقول إنك قلت إني دفعتك للانتحار. نظرت لي بعينين ضبابيتين وقالت: أنا لم أقل ذلك. والأصوات المزيفة بلت الزانية يمكنك معرفتها ببساطة. قلت: لا، تكذبي. قالت: أنا ذهبت إلى السطح ولم يكن في نيتي إلقاء نفسي، لكني رقيت السلم وطلعت لأرى هذه السماء التي تقول عليها. قلت: وماذا رأيت؟ قالت وبدأت تنشج: لم أرَ شيئًا، لم أرَ شيئًا. هي نفسها السماء التي بلا معنى. لا توجد أخرى. قلت وقد هزتني فكرة مجنونة: تعالي معي بسرعة. استغل سمير صرخة أم رضا وقفز على سامي ضاربًا يده التي تحمل السلاح بقوة فطار المسدس بعيدًا، ونزلا الاثنان فوق الأرض واحتدما في عراك شديد كزوج نيران أولاد زانية. وقفت أرتجف والغضب يكاد يوقف قلبي وأنا لا أقدر على الدخول وسط حلبتهم اللعينة هذه، فأخذت أحوم حولهما وهما يصفعان ويلكمان بعضهما ويتناوبان ركوب بعضهما وأبصق بكل ما لديّ من قوة فتصيب بصقاتي رأسًا أو كتفًا أو قفا، قال سمير: تتصنع علينا الرجولة وتتحامى في سلاحك يا ابن الوسخة. وقال سامي: سأدفنك هنا في مكانك ولن يكون لك حتى دية يا مخنث يا ابن الكلب. ازداد بصاقي وصرخت فيهما: إتفو إتفو إتفو يا أولاد الزواني! إتفو إتفو يا أولاد الكلب إتفوا ذهبنا معا متسللين إلى صندوق كهرباء الفيلا الكبير وبحذر حاولت إغلاق القاطع الكبير، لكني لم أقدر فساعدتني مريم وبالكاد استطعنا إغلاقه وأطلق شرارة عالية مفزعة.

انقطعت الكهرباء عن الفيلا فأمسكت يدها وعدونا إلى السطح وقلت لها: نامي على ظهرك الآن وانظري. انظري بسرعة قبل أن يفتح الكهرباء أي بغل ابن زانية. رقدتُ على الأرض جوارها وتأملت سمائي مجددًا. يا للجمال الوضاء! انتبهتُ لثلاث نجمات يقفن بانتظام شديد وقد رأيتهم بالضبط ليلة البار، ونجمة تبعد عنهم قليلًا لكنها تحاذيهم. قلت: أترين هاته النجمات؟ يشبهون أسرتنا! سمعت الدموع تسح من عينيها لكني لم أقل شيئًا. لعلها تأثيرات الجمال، النسوة حمقاوات يبكين حين يحزن وحين يفرحن وحين يغضبن وحين يندهشن وحين يرين جمالًا كهذا. قالت بصوت هادئ: لكن أليست هذه هي نفس السماء في كل ليلة؟ قلت: ربما لكني أراها بطريقة مختلفة. لو نظر الناس إليها كما أنظر أنا لهدأ الجميع. لما كانت مدينتنا كهذه وناسها كهؤلاء. قالت ولا تزال دموعها تتساقط بصمت مميت: صفها لي. قلت -ولُعِنَ لساني الذي زيف كل شيء-: انظري يا مريم. سمائي هذه لا تظهر إلا لمن يريد أن يراها حقًا. كفتاة عجرية لعوب تأبى إلا أن تكون محط الأنظار ومصب الاهتمام. فتتزين زينة عروس وترتدي فستانًا أسود بنمارق صغيرة لامعة كشموس صغيرة. وتضفر شعرها في ثلاث نجمات متتاليات منتظمات في صف طويل، وتربطه بنجمة رابعة مشاكسة أقاقة. ترسم لنا بفنها العجري المقدس لوحات منيرة كل ليلة، وتغوينا بالاقتراب وبالفناء حتى. هذه فتاة مغوية

تتراقص بليونة عابثة في حفل خاص ليلي يحضره كل البشر، تتراقص على موسيقى أندلسية بنقاب شفاف باهت، فتسكرك وتجلسك طويلًا طويلًا تتراقص معها وتذوب في ألحانها ورقصتها البديعة، فتهدأ أيها اللعين ابن الزانية، تهدأ قليلا أنتَ الذي تلهث على الدوام، وتركض كوحش ضارٍ خلف فرائس وهمية، رغم أنك أيها الزنيم المأفون لن تصيد إلا فريسة واحدة أبدية كُتبت لك. تلهث ليلًا ونهارًا وتعدو في الشوارع وتعارك هذا وذاك على فريسة أسطورية لا وجود لها، لو أنك تهدأ قليلًا وترقد رأسك لغجريتك الفاتنة، لو تسمع النغم وتتأمل اللوحة وتخلبك الرقصة، لو أنك تلكأت قليلًا وأنت تهرع يوميًا تلاحق فرائسك المُتخيلة لسمعت النيل العظيم يحدثك بأخبار ما كان ومن كانوا، لو سكنتَ لوهلة لرأيت صورته منعكسة وسط فستان الغجرية الفيحاء وفستانها المتلألئ، لو استمعت لأخبارك ببؤس اضطرابك وعبثية جدواك، لو رأيتَ ما أرى لما ملأت المدينة صخبًا وعراكًا وسبابًا ودمًا، لاستكانت نفسك ولربما أصبحت سعيدًا. فجأة عادت الكهرباء واختفت النجوم بفضل المصابيح البرتقالية الفاقعة التي تضيء حديقة الفيلا. فأغمضتُ عيني معتصرًا إياها بشدة لأحفر في ذاكرتي مشهد السماء، لكن ذاكرتي ضعيفة مثل جسدي كله، أو لعل الغجرية اللعوب تأبى إلا أن تأتيها كل ليلة خاضعًا لجمالها اللئيم. قالت مريم وقد هدأتْ قليلًا: لو أني أستطيع أن أراها! لم أرُد وأنا أعتصر عيني. قالت

وهي تعتدل جالسة وترسم بيدها خطوطًا على تراب السيراميك الأبيض: أحيانًا لم أعد أعرف هل أحببته فعلًا، أم تزوجته لأجل حياة أفضل. قلت: الحب مزيف. قالت: لا، ليس مزيفًا. لم أرد، فأنا أعرف جيدًا أن الحب ابن زانية مزيف ولا حاجة للنقاش مع واحدة مثل مريم كل معلوماتها في الحياة تأخذها من صفحات الفيسبوك. قالت: بصراحة حين حاول محادثتي أول مرة فوجئت كثيرًا، أسمير سرور بنفسه معجب بي أنا؟ لم أصدق، أخبرت صديقاتي فكذبني، قالوا لعلها نزوة لابن العز والفخفخة؛ فمن أنتِ لينظر إليك سمير سرور المحاط دائما بأجمل جميلات مدينتنا وأغناهن؟ لكنه جاء مرة أخرى بسيارته المرسيدس ووقف في منطقتنا المتواضعة ولفت أنظار الجميع، ومن لا تعرف سمير سرور؟ في وقتٍ ما كان فتى أحلام كل فتيات مدينتنا، لعله ما زال كذلك لا أعرف بالتحديد، وقالت أمي صديقاتك يغرن منك، والحسد مذكور في القرآن، ودار على شمعتك تزدد نورًا. أبي لم يتكلم وكأنه لا يعرف شيئًا على الإطلاق، وأخي الذي أنا واثقة بمعرفته الكاملة للسيارة المرسيدس والورود التي تنهال على بيتنا غض طرفه، هو الذي لا تزال آثار ضرباته على جسدي باقية حين رآني أحدث ابن الجيران. شعرت أن الأقدار تدفعني دفعًا نحوه والدنيا ربيع والجو بديع، العصافير تزقزق والورود تتفتح، كل شيء سعيد وموافق ويغضُّ طرفه أملًا في اكتمال الأمر. وصديقاتي قلن لي -مثل فيلم عربي قديم- لا تعطيه ريقًا

وإلا تركك، أمثال هؤلاء الأغنياء المدللين ليسوا معتادين على من يقول لهم لا. وقلن أيضًا: شوّق ولا تذوق، يعني بين البينين، لا ترسيه على بر، البنت الشاطرة تستطيع إيقاع عشرة مثل سمير هذا دون أن يلمسها أحد. لكني أحببته ولم أشأ سوى بيت هادئ يجمعنا ونعيش في سلام، ننجب ولدًا وبنتًا ونعلمهم أن يعيشوا في سلام أيضًا، نتبنى طفلًا يتيمًا مع أبنائنا لنخلق مزيدًا من السلام في العالم، ولنحمِ طفلًا من هذه المدينة. هذا العالم وهذه المدينة يخيفاني جدًا، لا يوجد عدل ولا يوجد سلام وقمة الحماقة هي انتظارهما، كنت ساذجة جدًا وأنا أحلم هذه الأحلام الوردية، وحين ملأ المدينة بيافطات: تتزوجيني؟ حين ملأ الميدان تحت بيتنا بالورود وبنى نافورة كاملة مضيئة، رقعت أمي بزغاريد لا تنتهي. طبعًا نبهتني أمي أن الحياة في بيت العائلة مع أهل زوجي ستحتاج إلى مرونة وحنكة، لكن -قالت- أنتِ تربيتي وستكون حياتك رائعة. لم أجد السلام فور أن وطأت قدمي الفيلا، فمن يراكم من الخارج لا يرى كل هذا السوس الذي ينهش بيتكم من الداخل. عرفت أني وحدي واكتفيت بسمير وقلت هو عائلتي. لكنه بعدما فعل كل ما فعله، ذهبت إلى بيتنا غاضبة فنهرتني أمي. أتعرف لمَ؟ قلت وأنا أعتدل أمامها: بالطبع أعرف لأن أهل المدينة هذه كلهم أولاد زواني. قالت بلوم مفتعل: لا تقل ذلك عن أهلي. قلت: لم أعنِ أهلك بالتحديد، قلت أهل المدينة! قالت: طيب! سكتت قليلًا ترسم مزيدًا من الخطوط

في التراب: هل تساءلت يومًا أين أهل مريم؟ لماذا لا يقف لها أحد أمام زوجها الذي يخونها على مرأى من المدينة كلها وملأ السمع والأبصار؟ طبعًا يا عزيزي أنت تعرف الإجابة مثلي، لأنهم أولاد زواني لكننا لن نخبرها بذلك لأنها معتوهة لعينة. قالت: بعد فترة وجيزة من زواجي بسمير، طلب منه أخي فرصة عمل، وطبعًا عينه سمير في شركته، أظن أن سمير فعل ذلك ليكسر أنفي، أو ليعوضني عن خياناته وعن كونه مقصرًا في حقي. وأبي كما تعرف يعمل لدى بابا سرور في مركز الأسنان مديرًا للحسابات، كيف لهما أن يقولا شيئًا لسمير أو لأبيه وهما يأكلان كل شهر من مالهما؟ قلت غير عابئ: أولاد زواني. سكتت ثم اضطربت فجأة وأثارت التراب لتمسح كل خطوطها وقالت: هذه الحياة ليست حياتي، ولا يمكنني أن أكون سعيدة أبدًا فيها، لكني لا أعرف حياة أخرى، لا أملك حياة غيرها، كل يوم أقول لنفسي استسلمي لأجل ولدك، استسلمي وانتهينا، لا أقدر، لا أقدر، أفكر في الهرب لكن إلى أين؟ وابني لمن أتركه؟ أغوص في دائرة مغلقة من العذابات لا تنتهي فلا أجد أمامي سبيلًا سوى الموت، لكن حتى ذلك فشلت فيه. قامت من مكانها: ليس لدي سوى هذه الحياة وليس لدي سوى ابني أجعله أفضل إنسان، سيكون هو سندي وأماني ورجلي وسلامي الذي لم أجده في الدنيا. اتجهت لباب السطح مغادرةً ثم وقفت لحظة ورفعت رأسها لأعلى: حتى السماء لا أستطيع رؤيتها. أكون كذوبًا إذا قلت إني أيضًا أستطيع

رؤيتها حين أريد. على الأقل فيما مضى. بعدما رأيتها أول مرة صرت أتأملها كل يوم باحثًا عن لحظة شفافة مثل المرة الأولى. أغلق الأنوار وأرقد أسفل النافذة، يطرقون على باب غرفتي ولمّا يتأكدون من شدة الصمت يحاولون فتح الباب، لكنه مغلق بالمفتاح، وحده أبي إذا وجده مغلقا يظل يطرقه، وحين أفتح له مضطرًا، وإلا لن يصمت أبدًا، يقول بنبرة متشكك: لماذا تغلق الباب؟ أقول: لا شيء كنت سأنام. يصمت قليلًا ثم يهز رأسه ويقول: هذه الأشياء ستدمر صحتك. احذرا ثم يغادر. ما الذي يقصده تحديدًا؟ العادة السرية أم المخدرات؟ لا أعرف. أعود لضوء النجوم فلا أرى سوى لمعانٍ يشبه مصابيح الفيلا حين تضعف إضاءتها. أيام كثيرة تلت تلك المرة الأولى حتى إني نسيت الأمر تمامًا. للأمر علاقة بالاقتراب من الموت، برؤية الخط الباهت الفاصل بين الوجود والعدم، بوجود جسدك هنا وروحك في الناحية الأخرى، قدم هنا وقدم هناك، كالواقف بين حدود بلدين، لكنهما في الحقيقية عالمان كاملان. كأن تفسخ رجليك فوق النيل فتصير واحدة في مدينتنا والأخرى في المدينة الأخرى. تصير قطة شرودنجر لعينة لكنك تدرك ما لا يدركه الأحياء وتحمل عبئًا كأن الموت حقلك الرسالة. نزلت من عند الطبيب شاحب وجهي والكلمات التي بصقها عليه شوشت الضوء في عيني فلم أتبين ما أراه وصرت أتخبط في مشيتي، أبحث عن الهواء فلا أجده، فأنثني بحثًا عن الأنفاس ثم أعتدل ورأسي

يدور لأستند على حائط لعين. في تلك اللحظة رفعت رأسي فرأيتها مرة أخرى، ولا أدري كيف عادت إليَّ أنفاسي وتنزلت عليَّ السكينة كزخات المطر. تضرب سيليا رأسها وهي تقول: هل تسمع نفسك؟ this is total crap. لو أنَّ للأمر علاقة بالموت فلماذا لم ترَ مريم سماءك هذه؟ قلت: مريم غبية لا توجد مرة واحدة حقيقية اقتربت فيها من الموت. تقول: So؟ هل يجعل ذلك كلامك صحيحًا؟ ثم ما الذي سيحدث بالتحديد إن رأيتها؟ قلت: ألم تسألي عن التغيير؟ هذا هو. قالت: ألن تنسى أبدًا؟ قلت وأنا أرتجف: النسيان خيانة! وقف أبي قليلًا أمام الجسدين المتصارعين كالجديان ثم جلس وهوَى رابطة عنقه قليلًا وهو يقلّب في هاتفه المحمول قبل أن يرفعه في وجهنا –لكن الحقيقة أنه في وجهي وحدي، فوجها سمير وسامي كانا غارقين في بحر من اللكمات المتبادلة– ويقول وهو يمسح صلعته بمنديل سحبه من على منضدة صغيرة: رأيتم ما كتبت أمكم على فيسبوك؟ أمكم خلاص عقلها فلت ولن تهدأ حتى تهدم كل ما بنيته. التحم البهيمان فأسقطا أحد الكراسي، وأكمل هو: ليس عليها إلا لولا ثريا هانم، لولا أبي الدكتور عبد الحميد باشا، كاذبة وسخة، أنتم جميعًا تعيشون في هذا البيت الكبير بفضل مجهودي أنا، بتعبي أنا. لكن الهانم الآن تريد الطلاق لأني تزوجت من خادمة. طبعًا تزوجت من خادمة، لكن افهموا أنا لا أحبها ولا أطيق النظر لوجهها حتى، تزوجتها لأكسر أنف أمكم فقط، تزوجتها عرفي

حتى؛ كي لا تشاركم في الميراث، تعرفون ذلك! بالطبع نعرف ذلك وأكثر. عرفنا الدكتورة نورا زميلته في الكلية والتي تعمل معه أيضًا في المركز. صدقني لا أفهم لماذا يظن آباؤنا أنّا أغبياء أو حمقى؟ السبب الوحيد الذي يخطر على بالي هو أننا أبناؤهم، وهم أدرى بجيناتهم اللعينة ومستوى ذكائها! مكالماته الهامسة في الليل وغضبه الشديد حين تلمس سيليا هاتفه على غير عادته في تركه لها، سمير قال: طبيعي أن يفعل أبوك ذلك، أمك فرضت عليه ألا يمارسا إلا جنسًا فمويًا منذ أنجبا هذه المفعوصة! وأبوك لا يزال في كامل صحته. قلت غاضبًا: يا أخي لا تتكلم هكذا أمام الصغيرة! قال: هذه صغيرة؟ هذه تذهب بك إلى البحر وتعيدك ظمآنًا! يا للأمثال اللعينة التي تمتلئ بها مدينتنا بنت العاهرة! بالطبع من يذهب إلى البحر سيعود ظمآنًا! أسيشرب ماءً لعينًا مالحًا؟ لكني قلت لك قبلًا هم يسمُّون الشارع على ضفة النيل بحرًا لذا لا عجب مما تفرزه هذه الأمخاخ المتكلسة! قال سامي: أبوكم وافق على اتفاقها! والآن يريد أن يتزوج أخرى؟ هل تنقص الزريبة من بهائم؟ قال سمير: الميراث سيأكل رأسك! لعلمك ستموت أنت قبل أبوك ولن ترث شيئًا! قال سامي: سنرى من يموت أولًا! قلت: على كل حال نحن نعرف أن أمكم لا تختلف عنه كثيرًا ولو أنكرت إلى يوم الدين! رأيناها بأعيننا أليس كذلك؟ قال سمير: يووه! ألا زلتم في هذا العته؟ قلت: نحن متأكدون! حتى أختك الصغيرة فهمت! قال سمير: طيب، هو خانها وهي

خانته، هذه مشكلتهما معًا وهي لا تهمني في شيء طالما مصروفي لم يهتز في البنك. قال سامي: ولا أنا. قال سمير: ولماذا تهتم أنت؟! وُلد أبي في قرية طرانيس البحر التابعة لمدينتنا لأب كان يعمل كاتبًا لدى محامٍ، وأدرك أنه لا سبيل له في هذه الحياة إلا بالشهادة، فأفنى وقته كله في المذاكرة حتى التحق بكلية طب الأسنان في مدينتنا. كلية طب الأسنان التي دخلتها أمي بعده بثلاث سنوات ونشأت قصة حب بين المعيد الكحيان الفلاح وبنت الطبيب الشهير أغنى أغنياء المدينة وابن عائلتها العريقة. الباقي مفهوم ولا داعي لسرده حتى فهو من فرط تكراره في أفلام السينما لم أعد أصدق كونه حقيقة، بل أتخيل أحيانًا أنهما اختلقا قصة حب لعينة بلت زانية تشبه أفلام الأبيض والأسود التي يحبانها. لكن أبي يقول دائمًا إن جدي لم يساعده في شيء بل قال له: بيتك على قدر ما تستطيع وطالما ابنتي موافقة فهي حرة! كيف تصدق قصة مثل هذه وأنت تراها تقابل عشيقها في وضح النهار وفي يدها أولادها؟ كيف تصدق وأنت تسمعه في أنصاف الليالي يهمس في التليفون لزميلته نورا بكلام اعتدت مشاهدته في أفلام البورنو؟ كيف تصدق هؤلاء الأنجاس أولاد الزواني؟ كيف يأتون بكل تبجح ويقفون على رؤوسنا ويقولون افعل ولا تفعل؟ كيف يشيرون بأصابعهم النجسة ناحية الصواب؟ أي صواب يا عواهر يا مناجيس يا رعاع! عرفت ثريا هانم طبعًا بأمر الدكتورة نورا وعرف الدكتور سرور طبعًا بأمر

عشيق ثريا هانم. فمدينتنا جوثام الملعونة أكبر من مستنقع وأصغر من جحر ضب. أخذت تحطم كل شيء تقع عليه يدها من تماثيل وطاولات وحتى كراسي: آه يا ابن الكلب! زميلتك! ماشي مع زميلتك! أحسن مني؟ طبعًا أنا التي أوقفت مستقبلها المشرق لأجل أولادك، آه يا خسيس يا رخيص يا ابن الكلب. أنا بنت الدكتور عبد الحميد حسان، بنت الحسب والنسب، عائلتي تعرفها المدينة كلها ولولاي ولولا عائلتي لما كنت شيئًا! أما أنتَ.. أنتَ ماذا جنيت من ورائك؟ أوقفت مستقبلي لأنك رجلا مهزأة تخاف أن تتفوق عليك زوجتك! العيب ليس عليك يا شرموط يا ابن الكلب! أنا المخطئة! كان جالسًا لا يتحرك يدخن سيجارته وحين انتهت من كلامها قام: انتهيتِ؟ أخرج من جيب بدلته عدة صور لعشيقها في بدلته الزرقاء وفي غيرها من زوايا عديدة، وألقاها في وجهها، صُدمت حين رأت الصور وأصابها الخرس ووقفت ممسكة بواحدة منها بلا حركة، فقال هو: هذا البيت الذي يؤويك وابن الذوات بتاعك بنيته طوبة طوبة ولا أنتِ ولا هو دفعتما فيه جنيهًا واحدًا، ولولا بيتي هذا ولولا أني ابن أصل لما أخذته وعالجته على حسابي حين تركته عائلتك المصونة ككلاب الشوارع، هذا الذهب الذي يُغرق يدك وصدرك من مالي أنا، رحلاتك التي تتفاخرين بها في النادي على صديقاتك الشراميط أنا من دفعها. صديقاتك اللاتي حاولن واحدة تلو الأخرى معي لكني لم أفعل ذلك لأني رجل يحترم ذاته ويحترمك.

وقفت قربا هانم تستند على الحائط ثم تسارعت أنفاسها وسقطت على الأرض، اقترب منها وأمسك يدها وجس رقبتها ثم قام فرآنا واقفين نختلس النظر من خلف الأعمدة، قال: أمكم بخير لا تقلقوا، الآن ستقوم! وغادر البيت. وحين سمعت أمي صوت الباب يُغلق رفعت رأسها بنصف عين حتى تطمئن على خلو المكان ثم قامت. من يومها اعتادت كلما ضايقها أحد في البيت أن تتسارع أنفاسها ثم تسقط مدعية الإغماء، أحيانًا – قرأت قبلًا– التنفس السريع بطريقتها اللعينة هذه يصيب بإغماء حقيقي. فجأة تجدها تصرخ وتلطم وجهها وتشد شعرها كالمجاذيب وتقول: خادمة يتزوج خادمة ابن الكلب! ثم تقول: أنا بنت عبد الحميد حسان! أنا! يتزوج عليَّ خادمة! وتنهار باكية وهي تصرخ: أنا مريضة ولا أحد يحس بآلامي! هو السبب! هو السبب! وكنت أرى جدي يجر عكازه البليد ويقف يتأملها وهي تبكي وتفقنه الأزلية. دخلتُ كلية علوم السياسة والاقتصاد في جامعة يتكون اسمها من ثلاثة حروف أجنبية رجيمة هذه المرة، وافق أبي على مضض، قال: كنت أريد تسهيل الأمور عليك لكنك حمار! ستعدني الآن أنك ستصبح سفيرا أو وزيرًا للخارجية على الأقل! قالت أمي: طبعًا طبعًا سيكون أعظم سفيرا قال وهو يهز رأسه متأسيًا: معقول سامي هذا يصبح طبيبًا؟ لكن سامي كان واضحًا جدًا ولا أحد يجرؤ على قول لا أمامه. تخرج في كلية الشرطة بامتياز مع مرتبة الشرف ابن الزانية كالمعتاد. وجاء

تعيينه في مكان بعيد جدًا لكن زبائن مركز الأسنان طبعًا الذين يعالجون أسنانهم بالمجان وزبائن مكتب سيادة النائب الذين ينهبون المدينة بالمجان- لم يسمحوا بذلك، فالتحق بقوة مدينتنا. لم أقض وقتًا طويلًا في السياسة والاقتصاد حتى أدركت أنهما مثل طب الأسنان مليئان بالدم وتشريح الإنسان. قرأت يومًا أن جمعية طب الأسنان الأمريكية رفضت بقوة قرارًا بإضافة الأسنان إلى التأمينات الاجتماعية، وحاربت حتى تم إلغاء القرار. لم أجد فارقًا كبيرًا بين ما فعله أولئك الأطباء وما يفعله السياسيون كل يوم. فكرت في دراسة الأدب لكني خشيت أن أكره الشيء الوحيد الذي يبقيني حيًا. فلا تدري أي سوس ستجده ينخر فيه من الداخل. وفي جميع الأحوال فإن مرضي لم يمهلني الكثير لأفكر. سأعيدها مرارًا، هذا المرض أنقذني من مساراتهم الأفعوانية وجعلهم يبررون لي خروجي عن المألوف وبذاءة اللسان. نعم يا عزيزي إنه عصر جديد، عصر إكس وواي وزد معًا، عصر يقوده البيبي بومرز، عصر حديث بأمراض متطورة أو مُطورة. وكيف تجزم بحقيقة المرض؟ أهو من صنع الإنسان أو نتيجة صنيعه؟ وما الذي تنتظره في مدينة داعرة مثل هذه في عالم مأفون مثل ذلك غير سرطان لعين ابن زانية في خصيتيك؟ لن أقص عليك قصة مأساوية طويلة لأني لا أريد شفقتك الدعيّة. عولجتُ المرة الأولى في مستشفى المدينة العمومي، تزامنًا مع انتخابات أبي للمرة الثانية، وقف جواري وأنا راقد على السرير

القذر في غرفة جُهزت خصيصًا لأجلي، يرتدي بدلته الرمادية ونظارته حليق الذقن ممسكًا بمسبحة بيضاء، ويضم يديه أمام عائلته كلاعب كرة يقف في حائط صد ويقول للكاميرات: هكذا ترون أني أنا نفسي أعالج ابني وفلذة كبدي من مرضه الخبيث في مستشفى مدينتنا العمومي التي كان لنا -ولله الحمد والمنة- فضلٌ كبيرٌ في تطويرها، لقد ولّى الزمن الذي يذهب فيه أعضاء مجلسنا الموقر للعلاج في الخارج هم أو أسرهم، وإني أعدكم -بحول الله وقوته- أن تشهد المستشفى مزيدًا من التطوير إن منحتموني أصواتكم الكريمة. أشار مدير أعمال والدي له بالاقتراب أكثر من سريري والانثناء بوضع معين وهو يقبل رأسي، ثم دوت الفلاشات العامية في عيني. بعد مداولات قالوا: سيكفي العلاج للقضاء على الورم ولا حاجة لعملية استئصال. ملؤني يسائل كريه يحرقني ببطء وسقط شعري القليل -فأنا لم تنبت لي لحية قط- وحتى حاجباي تساقطا وبدوت كمؤخرة طفل شوارع قذرة. ثم عرّضوني لإشعاع متواصل طوال شهور فازددت نحولًا فوق نحول، ولمّا تكد تمر سنة على انتهاء العلاج حتى عاودني المرض من جديد. هذه المرة تعالجت في مستشفى الشويحي كلينكال التي يزينها صليبٌ أحمر وعلما بريطانيا وأمريكا، المستشفى الكبير المطل على النيل العظيم. السيد عاصم الشويحي صاحب المستشفى الجراح الكبير الحائز على إجازته في تخصص دقيق من جامعات مستوردة عريقة معتقة بروائح

الخمور والخنازير النجسة المقددة بالملح والزبدة؛ قال: إنه عصر جديد يا ثريا هانم كما تعلمين، والطب تقدم كثيرًا، سيكون الأمر مكلفًا قليلًا.. لكن.. قالت أمي: لا تهمني التكاليف إن لم يدفعها أبوه سيدفعها جده الدكتور عبد الحميد حسّان. قال: طبعًا طبعًا. عائلتكم غنية عن التعريف والدكتور سرور أستاذنا جميعًا. والدكتور عاصم هذا أسود الشعر قصيره رغم كبر سنه الواضح، جسده عريض قليلًا وذقنه مدببة وبها دقة حُسن لعينة تجعله أشبه بالنساء. نظارته شديدة التقعر مما يشي بضعف واضح في البصر يجعلك تندهش كيف يكون صاحبه جرّاحًا دقيقًا في تخصص مثل ذلك! الطب هذا يا عزيزي مثله مثل كل شي حولنا مزيف، نعم الآن الناس لا يموتون مثل الماضي، لكن وما أدرانا ما الماضي حقًا؟ ثم هل تساءلت يومًا كيف يتعلم الأطباء؟ نعم يتعلمون علينا نحن المرضى، يمسكون برأس مريض ويشقونها ويخرجون مخه فيموت، آه إذن المخ اللعين ضروري للحياة! وهكذا! أولاد زواني! قال بعدما عاين أشيائي وصور الأشعة وخلافه: سنعيد الكيماوي ثم يجب استئصال الخصية اليسرى قبل أن ينتشر الورم ويصل إلى اليمنى، اليمنى مصابة قليلًا، لكن نأمل أن تموت هذه الخلايا مع العلاج ولا نحتاج إلى استئصالها. قالت أمي: وما تأثير ذلك يا دكتور؟ قال: سنحاول تقليل التأثير لكني أخشى أنه.. وسكت مترددًا قليلًا، فقالت أمي: ماذا؟ لن يكون رجلًا؟ ولطمتْ على وجهها!

لكنه قال بسرعة: لا، سيظل رجلًا طبعًا لكنه فقط لن يستطيع الإنجاب. عظيم عظيم ولماذا ينجب المرء في زمن مثل هذا سوى لأنه وغد حقير فرجسي يحسب أن جيناته تستحق البقاء على هذا الكوكب الملعون في هذه المدينة المقززة. خراء عليكم وعلى مدينتكم وعالمكم المزري كله يا أولاد الزواني. ولدكتور عاصم هذا ابنٌ يشبهه إلى حد كبير، له عينان ضعيفتان مثله وشعر أسود مجعد يطلقه فيلتف حول ذاته ويصبح كرأس حبة مشروم لعينة، ولحيته القذرة ترتسم على ذقنه المدببة مثل أبيه، فيبدو كغابة شعر كأن وجهه عانة راهبة خجول في كنيسة مارى جرجس المقابلة لمسجد الجمعية الشرعية الكبير. وهذه عادة مدينتنا المشؤومة، فأينما وجدت كنيسة كبيرة رأيت أمامها جامعًا ضخمًا، وكلما رأيت جامعًا كبيرًا وجدت أمامه كنيسة ضخمة. مبانٍ هائلة فارغة من المصلين يتردد فيها صدى أصوات عالية تخرج من مكبراتها منافسةً بعضها أيها يملأ العالم ضجيجًا أكثر من الآخر. أما هو -عمرو هذا ابن الزانية- فيمكنك ضرب المثل به في وصف شباب مدينتنا الأدعياء. دعني أخبرك كيف تعرف أن هذا الفتى أو غيره من مدينتنا: أولًا، التشيرت ذو الياقة الماركة وأشهرها لاكوست ويو إس بولو، أو القميص الفضفاض المفتوح من الصدر قليلًا لتظهر منه السلسلة الفضية التي ستُذكر لاحقًا. ثانيًا، الشورت القصير اللاصق بالفخذين والحذاء البانص بدون جوارب، أو البنطلون الجينز الأزرق الغامق

والكوتشي الضخم أديداس أو نايكي أو حتى أكتيف أبو علاء من أبراج السوسن. ثالثًا، المنظر القذر للحية والشعر وعدم الاهتمام بهما بشكل يبدو طبيعيًا، مما يعطي إيحاءً مزيفًا للناس البهائم بعمق لعين مفتعل. أو حلق اللحية تمامًا والإبقاء على شارب ضخم سمج يشبه شوارب الحاخامات والمخبرين. رابعًا، حقيبة ظهر سوداء ممتلئة بأشياء لا تعرفها ولن تعرفها أبدًا وفي الأغلب لا يكون فيها سوى شاحن الهاتف والشاحن النقال الباور بنك. بالطبع لأن الآيفون اللعين ابن الزانية يفصل سريعًا جدًا ولا يكفي للبقاء بالخارج طوال الوقت. خامسًا، الأساور الفضية أو الخرزية التي تملأ الساعد الأيسر والأيمن وساعة ضخمة توضع في اليمنى من باب الاختلاف لا من باب التدين. وسلسلة فضية أو اثنتان يتجلى منها رأس ثور أو نسر أو أي شيء آخر تزين الرقبة كأنها رقبة كلب هاسكي. ثم الكلب نفسه الذي تُنزّهه منبخترًا على شارع المشاية السفلية خصوصًا أمام نادي الجزيرة، أو عند بوابة جامعة مدينتنا من ناحية كلية الحقوق. سادسًا أو سابعًا، لأني نسيت، علبة السجائر وميدالية المفاتيح التي يمسكها في يده كأنه يمسك مفاتح الكون. وصدقني هذا الوصف، باختلافات باهتة طفيفة لا تكاد توجد، ينطبق بالكامل حتى على بنات مدينتنا. نظرة واحدة على سيليا يجعلك تدرك ما أعنيه. سيليا هي من عرفتني على عمرو هذا باعتباره صديقها. وهو إنسان يطفح زيفًا. ترى الزيف متجسدًا بمجرد النظر إليه. هو الآن

يدرس في أمريكا متخصصًا في علم الأورام كما أراد أبوه. أتذكر اليوم الأشأم الذي أخذتني فيه لتعرفني به. بيني وبين سيليا ربما عِقدٌ من الزمان، فأبي وأمي أنجباها متأخرًا وظنت أمي أنه انقطاع للطمث يصيبها، وبكت لأن سن اليأس أصابها مبكرًا جدًا، هي التي لا تزال في ريعان الشباب. حين عرفا بالحمل تمنت لو كان ذلك انقطاعًا للطمث فعلًا، فمن يقدر الآن على تربية طفل بعد كل هذا العمر! الطبيب أخبرها بعد الإنجاب أنها لا يمكنها أن تنجب ثانية، والأفضل لو تتخذ احتياطات لذلك. لكن طبيبًا آخر نصحها بالوسائل الطبيعية لأن في مثل سنها فإن وسائل منع الحمل ستكون لها تبعات لا تضمن خطرها. هكذا اتفقا على إبقاء علاقتهما في إطار الجنس الفموي ليس إلا. ربما فكرا في ذلك لأنهما طبيبا أسنان! كيف نعرف ذلك؟ لأنهما ببساطة أخبرانا به! ولأنهما يفعلانه في أي مكان! أولاد زواني! لا أعرف بالتحديد من أنشأ سيليا فأمي تفرغت لعشيقها أو للندب على عائلتها أو لسب أبي وادعاء الإغماء والمرض. وأبي تفرغ للمجلس والجامعة والمركز ودكتورة نورا والزواج من خادمة. ربما تناوبنا تربيتها نحن الثلاثة. ظننتُ دائمًا أنها أقرب لسامي منا لأنه أقربنا لها سنًا، لكن الأيام أثبتت أن لا أحد قريب من سامي سوى ذاته اللعينة وحدها. ذلك اليوم بدا كمشهد سينمائي ابن حرام من إخراج كوينتن تارنتينو. المكان أمام بوابة نادي الجزيرة – شارع المشاية السفلية: سمير يقف بسيارته المرسيدس فاتحًا أبوابها

وموسيقى هاوس صاخبة تخرج منها، يستند على السيارة بظهره مرتديًا قميصًا أحمر عليه ورودٌ خضراء وبنطلونًا أبيض وجوربًا عليه رسومات ميكي ماوس، يمسك بسلسلة كلبته البيضاء لوليتا، وهي تنبح وتهز ذيلها، يمسك في يده الأخرى زجاجة كوكاكولا، تعرف المدينة كلها أنها ليست كذلك. وأصدقاؤه إياهم يدخنون سجائر ملغمة وهم يجلسون على مؤخرة السيارة أو يقفون جواره. في منتصف الشارع السيارات متكدسة فوق بعضها لأن الشرطة توقفهم لترى رخصهم، ولا حاجة لتكون أرسين لوبين لتعرف أن الضابط الواقف مختالًا بهندامه العسكري وشاربه المفتول هو سامي، يوقف السائقين ويراجع رخصهم وهو يرفع عينه كل حين ليرى بسنت ابنة اللواء أسامة محي الدين، وعلى الناحية الأخرى من الطريق تجدني أنا أدخل إلى الشارع الجانبي الطالع لشارع المشاية العلوية أو البحر كما يسمونه البلهاء، وبجواري سيليا متجهين إلى مكتبة "عيش وحلاوة" الواقعة في قبو يوجد في هذا الشارع الجانبي لنقابل سيادة عمرو بك الشويحي ابن الزواني. قال أبي وأصوات التناطح تعلو فوق صوته: أمكم خلاص جنت، هذه ليست تصرفات إنسانة سوية حتما. ثورا وتركتُها، وغفرتُ لها خيانتها، قلت هذه أمام تلك! لأجل الأولاد. لكني الآن أعترف بسوء تقديري، هل أذهب بها إلى مصحة نفسية؟ قلت: ولماذا؟ هذا البيت هو مصحة مجانين كبيرة. لم يعلق لأنه لم يسمع. سامي يحاصر

سمير عند عمود ويكيل له اللكمات والدم يتز من كليهما، وأبي يقول: فكرت كثيرًا في طلاقها، لكن أمكم معنوهة ومتصابية، كل ميراث جدكم وكل ما كتبته لها تهربًا من الضرائب ستذهب به إلى أول شاب وسخ يغازلها بكلمتين، لن أسمح بذلك أبدًا فهذا ميراثكم أنتم. ثم قال غاضبًا: ما تقعد أنت وهو خلونا نشوف الميراث الذي سيضيع. فور سماعنا كلمة الميراث ملتحقة بكلمة يضيع ابتعد سامي عن سمير والتفتا معًا، قال سامي: ميراث من الذي سيضيع؟! مسح سمير دمه وقال: أنقذت نفسك يا كلب الميراث. فأصابه سامي بلكمة عنيفة أخرى وبصق عليه وذهب ليجلس أمام أبي. قال أبي: اجلسوا اجلسوا ليس هذا وقته. أمكم كتبت على الفيسبوك تسأل عن ساحر لتطليق الأزواج وجلب الزوج، أرأيتم؟ كتبت تقول إنها ترى زوجها – الذي هو أنا – قردًا وأن ذلك تأثير عمل سفلي صنعته لها زوجته الثانية الخادمة التي تزوجها، طبعًا كثير من السباب على الرجال وتصرفاتهم ونقصهم لا داعي لذكره. وأمسك هاتفه يريه لنا من بعيد، ويقول: انظروا تعليقات صديقاتها الشراميط انظروا. ثم قال موجها كلامه لسامي بلهجة خاصة تنم عن عظم شأن المصيبة: حتى حماتك المصونة معلقة. سامي تزوج من بسنت ابنة اللواء أسامة محي الدين، تعرف عليها في نادي الجزيرة، وبالطبع فإن أبوها يتعالج في مركزنا مجانًا، هذا الزواج كان له فضل كبير في الترقية السريعة من ملازم أول إلى نقيب، ابن الزانية يعرف ماذا

يريد حقا. واللواء أسامة هذا رجل أبيض الشعر أحمر الوجه ممتلئ حد السمنة المفرطة ومن يراه لا يصدق أنه لواء في شركة أمن حتى. وبسنت ابنته الوحيدة، أفنى عمره كله في العمل وتربيتها. لذا لم يكن غريبا على الإطلاق أن يرفض انتقال ابنته للعيش في أي مكان، قال – بل أمَرَ في الحقيقة – إن ابنته لن تغادر منزلها، الفيلا واسعة ولا أحد فيها وأنت الآن يا سامي ستكون مثل ابني. وأمام سيادة اللواء تطبّع سامي بطبع أهل المدينة ومسح كلمة لا من قاموسه. بسنت نفسها تخرجت من جامعة اسمها من ثلاثة حروف أجنبية نجسة، لكنها تعرف نفسها بأنها دكتورة في علم الطاقة، تقول إنها أخذت شهادات معتمدة من أهم المتخصصين حول العالم في هذا المجال. لا، لا، أين ذهبت رأسك؟! أحسبت أن سامي سيتزوج ماري كوري؟! للكون نواميسه يا عزيزي. بسنت الأمية هذه قالت لي: تعالَ أزل طاقتك السلبية وأنظف هالتك فيزول عنك المرض! علم الطاقة سيكون مستقبل علاج السرطان وكل الأمراض. تقول بيقين لعين بلت الزواني. وهي قصيرة حد أنها تصل إلى فخذ سامي بالكاد، تشبه أمها ولحسن حظ سامي أنها لم تشبه أباها البقرة الحلوب، أبوها الذي ينتظر حفيدًا صغيرًا يشبهه، لكن بسنت المعالجة بالطاقة لم تستطع علاج ذاتها! قال الطبيب: لا مشكلة لا فيك ولا في المدام، لكنكما لن تستطيعا الإنجاب. ربما هي تنجب من غيرك وأنت تنجب من غيرها. بكت بسنت، بكت بحرقة، ومنذ

تلك الجلسة تبدلت نظرات سيادة اللواء لسامي. قال سيادة اللواء لابنته بوجوب الطلاق، لكنها رفضت رفضًا قاطعًا، قال صارخًا: يعني إيه! لن يكون لي حفيد؟ أمك لم تستطع إنجاب الولد وحتى أنتِ لن تستطيعي؟ على جثتي! قال سامي: يا فندم سيادتك العلم تطور ويمكن الآن التلقيح عن بعد وغيره والطبيب طمأننا بإمكانية ذلك. قال: فلتخرس أنت، لا أريد سماع صوتك! ألا يكفي الفضائح التي يفعلها أهلك كل يوم؟ في النهاية لست رجلًا كفاية لإنجاب الولد الذي تمنيته طوال حياتي. وأنا لا أريد أن أكون كاذبًا فمعرفتي بما يحدث في فيلا سيادة اللواء أسامة محي الدين قليلة جدًا، وما يصلني سمعته من أمي تنم به في هاتفها وربما أخبرتها به السيدة عفت زوجة سيادة اللواء الحلوف أو غيرها من قحبات النادي العجائز. وعلاقتي ببسنت تكاد تكون معدومة فهي لا تزورنا أبدًا، تتقابل الأسرتان في نادي الجزيرة أغلب الوقت، فلا يكون هناك داعٍ للزيارات، كما أن السيد المأفون أسامة محي الدين لا يحبذ كثيرًا أن يُذكر اسمه مجاورًا لاسم عائلتنا، لما تثيره من فضائح يومية في جرائد المدينة. أظن أن أي رجل قوي لدرجة لا يمكنك تخيلها كي يحافظ على كل هذه المناصب وكل هذه الوجاهة رغم ما يُعرف عنًا يوميًا في هذه المدينة الوسخة. أو لعل المدينة نفسها لا تلقي بالًا لفضائحنا لأنها غارقة حتى الثمالة في لهاثها الدائم. ألم يقل محفوظ أن آفة حارتنا اللعينة النسيان؟! دخلت سيليا على أمها

في غرفتها وسمعتُ صوت جدي يخرج خلفها ويقف على الباب وقفته السرمدية يراقبهما فوقفت أيضًا، سمعت سيليا تقول لأمي مترددة: ماما آ.. I have a... a... problem ا... قالت أمي: أية مشكلة كفى الله الشر؟ قالت سيليا: مشكلة.. I don' know ا. فقالت أمي: أما أنا فأعرف مشكلتي جدًا، مشكلتي في هذه الخادمة الحثالة التي تزوجها أبوك. ابن الكلب تزوج عليّ خادمة يا سيليا، أمك ابنة عبد الحميد حسّان.. وأخذت تلطم خديها وتنشد شعرها، فانسحبت سيليا، التفت عيناها بعيني جدي لكنها مرت جواره كأن لم تره، ودخلت غرفتها. ذهبت لغرفتها وصدقني لا أعرف إن كان ذلك حقيقيًا أم ادعاءً مني لدور الأخ الذي يهتم لأخته. طرقت الباب ودلفت، قالت: ماذا؟ هل ماتت أمك؟ قلت: ليس بعد! هزت رأسها وجلست أمام المرآة تصفف شعرها. أحد الكتب التي بدا أنها تقرؤها ملقىً بإهمال على سريرها فأمسكته، قلت: من رشح لكِ هذا الكتاب؟ قالت: a friend. قلت: ألست صغيرة على كتاب مثل ذلك؟ قالت: لو جئت تتصنع دور الأخ الأكبر فهو لا يليق بك. قررت صفحات الكتاب سريعًا وقرأت عناوين الفصول. قلت لها: على الأقل اقرئي كتبًا ذات قيمة. التفتت باهتمام: ألا ترى ذلك كتابًا ذا قيمة؟ قلت: أي قيمة؟ هذا كتاب تافه. وألقيت الكتاب بلا اهتمام. قالت: did you read it before؟ قلت: بالتأكيد. لكنه لا يصلح سوى ورقٍ للتواليت. سكتت. قلتُ: هل أنتِ

maktabbah.blogspot.com

شيوعية الآن؟ هل أقنعك هذا الهراء؟ قالت: don't you see our city؟ ألا يمكن أن يكون ذلك هو الحل فعلًا؟ قلت ضاحكًا: الشيوعية هي الحل؟ حل ماذا؟ كانت الشيوعية نفعت نفسها! هذه المدينة مريضة بسقم لا دواء له، لا ينفعها لا اشتراكية ولا غيرها. قالت: وما حلها إذن يا سيادة الفيلسوف؟ قلت: حلها الإعدام شنقًا لأهلها جميعًا، أو محرقة واسعة تحيط بها فتحرقها بمن فيها في ليلة واحدة. قالت بحماس: أريد أن أعرفك على أحد. قلت: أهو من سيحرق المدينة، أم من دلّك على الكتاب؟ قالت: لو أجبتك بنعم على السؤالين هل ستأتي؟ قلت: سآتي في كل الأحوال. فقبلتني على خدي مبتسمة. قلت لها: ما المشكلة التي كنت تريدين إخبار أمك بها؟ تجاهلت سؤالي وأنشأت تدفعني – وأنا ضعيف كجرادة – حتى خرجت من غرفتها وصفعتْ الباب في وجهي. ومدينتنا جوثام الشنيعة لا تحتاج إلى وطواط ليلي لكنها تحتاج إلى نبي. نبي حقيقي ليكتشف الطيبون أنفسهم ويلتفون حول بعضهم، ويحق القول على الظالمين. لن يهدأ الناس إلا حين يعرفون أن الدنيا هذه دَنية لا قيمة لها وأن لهاثهم هذا كله هباءً منثور. وهل تستحق هذه المدينة نبي؟ أم حقّت عليها كلمة العذاب وانتهى الأمر؟ لحسن الحظ أن "أبو رضا" مشغول اليوم، سيمنحني ذلك فرصة الذهاب وحدي إلى جلسة الإشعاع. ركبت تاكسي، وبندرة تاكسي مدينتنا الأحمر – الأبيض غير محددة برقم أو عداد، فاليوم تذهب من بيتك إلى

مستشفى الشويخي بعشرة، تعود بعشرين! أحب ركوب التاكسي – وأنا لا أستطيع قيادة سيارة على كل حال – لأنه يمنحني الفرصة للكذب بأريحية. يبدو الأمر كعملية متبادلة من الكذب الملون: كذبة بيضاء، كذبة سوداء، وكذبة رمادية. أخترع قصة دون سبب واضح، فأرفع هاتفي إلى أذني وأقول لمتصل وهمي: البقاء لله كان طفلهما الأول. ربنا يصبره! نعم نعم أنا في الطريق! فيخفض السائق صوت الموسيقى وأمنع نفسي من الضحك بالكاد. أغلق المكالمة المزيفة وأتنهد متأسيًا وأقول: لا حول ولا قوة إلا بالله ابنه الصغير مات بسبب المرض الخبيث يلعن أبوه. قال السائق وهو بلحية منبتة قصيرة ووجه ضئيل وصلعة خفيفة يدخن سيجارة كريهة رخيصة رائحتها تشبه فساء كلب: مع أني أسمع أن مستشفى الشويخي هذه أحسن مستشفى في المدينة! قلت: ربك لما يريد! وهل في الموت مستشفى خاص ولا حكومي؟ قال: أي والله معك حق يا أستاذ. ربنا يصبر أباه. الضنا غالي يا أستاذ مفيش أغلى منه. هو الواحد منا كافٍ وجهه على الطارة ليل نهار لأجل من؟ قلت: مفهوم أكيد أول ما تنجب المفعوص الصغير تتحول لعبد عنده. قال: حضرتك متزوج؟ قلت: آه، وعندي مفعوصة صغيرة عمرها سبع سنوات. قال: ما شاء الله لا تؤاخذني تبدو كطالب في الجامعة. قلت بضحكة كاذبة مفتعلة: نعمة وفضل وهل هناك من يريد أن يكبر؟! قال: على قولك! لكن الهم والغم اللذان يراهما الواحد طول اليوم

هما من يشيبان الصبي. حاول التقاط زبون آخر لكن مشواره كان بعيدًا فلم يتوقف، سب لسائق تاكسي آخر توقف فجأة ليلتقط زبونًا: كأنه هكذا سيأخذ زيادة على رزقه المكتوب! ثم التفت لي: لا تغرك الشيبة أنا لم أكمل الأربعين بعد، ياكش بس هذه الشغلانة التي تقطم الظهر وهذه المدينة التي لا ترحم. الناس في هذه المدينة تغيروا عن زمان، لم يعد هناك رحمة، كله يأكل في كله.. أشرت بإصبعي لينتظر قليلًا ورفعت الهاتف على أذني لأرد على مكالمة وهمية: ألو.. نعم أنا في الطريق إليه.. أظنها ستكون بعد الظهر.. إممم لا سأذهب إلى جدتي تريد بعض الأدوية.. نعم نعم تمام.. تصنعت إغلاق المكالمة المزيفة وقلت: الستات وقرفهم! قال: احمد ربك أنا حماتي ولية لو وُضعت على الطيب بمرض! قلت: أعوذ بالله! لحسن الحظ حماتي متوفية! قال: يا بختك يا أستاذ ربنا ما يريك كيد الحموات. أنا أصلًا كنت أعمل في العراق، سائق سيارة مقطورة محترم، رخصة درجة أولى لا يغرك التاكسي هذا! كنت ألف الدنيا كلها وحياة أولادي، الصبح في الكويت ولا سوريا والمساء في تركيا مع الروسيات لا مؤاخذة، والصبح الذي بعده أطلع على بيت الله في مكة. الله يلعن أولاد الحرام. أين أيامك يا صدام يا سيد الرجال؟ بالك يا أستاذ كان صدام يمر على البيوت ويطرق الأبواب ويدخل بنفسه، يسأل أهل البيت: ما الذي ينقصكم؟ يقول الرجل: ثلاجة. فيأمر مهيب الركن بإحضار ثلاجة فورًا وتدخل المطبخ

بكرتونتها جديدة نوفي. قلت: وهل جاء بيتك؟ قال: بصراحة لا، لكن سمعت من ناس ثقة ودخل بيوت سائقين زملاء. أيام عز يا أستاذ. وكان المصري مُكرم أكثر من العراقي نفسه. الله يرحم الجميع، ويلعن أولاد الحرام. أعود يا أستاذ وأشتري التاكسي هذا وأنكب على وجهي طول الليل والنهار لأجل لقمة حلال أطعمها لأولادي وأمهم، وحماتي كلما رأتني مرتاحًا في بيتي قليلًا، ترمقني: قاعد عندك بتعمل إيه يا سيد؟ انزل هز طولك يا سيد. ما خليت للنسوان يا سيد؟ ربنا يكفيك شر الحموات يا أستاذ. قلت: هل حماتك تعيش معك؟ قال: نعم! قلت: هذه حياة بنت زانية! ضحك وقال: أي والله يا أستاذ يسلم فمك. هذه حياة بنت مرة زانية. وصلنا إلى المستشفى فناولته النقود: فرصة سعيدة. قال: خلي يا أستاذ خلي والله. ثم أخذ النقود وقال: لا مؤاخذة يا أستاذ ألا تنقص خمس جنيهات؟ قلت: ليس لدي سوى مائتين، معك فكة؟ قال: أشوف لك. ناولته ورقة المائتين وأضاء نور السيارة الداخلي وأخرج من جيبه كل ما لديه وأخذ يرتبه ثم يعده. قال: سيبقى لك خمسة عندنا يا أستاذ والمسامح كريم. وأنا ملعون بلعنة هذه المدينة فلا أقدر على قول لا. هذه المدينة الفاجرة التي تخبر فيها رجلًا بأنك ذاهب لدفن طفل بريء مات بسرطان لعين ويتنطع: ألا تنقص خمس جنيهات يا أستاذ؟ ثم يأخذ منك عشرة! يلعن أباك وأبا الأستاذ، يلعن أباكم يا أولاد الزواني. رقيتُ إلى غرفة الإشعاع فوجدت ممرضتي

المعتادة هبة تستعد، وهبة ممرضتي منذ جئت هنا، منذ حقنوني بالسائل المقيت الذي يُسقط الشعر، ومنذ خدروني وفسخوني وأخذوا جزءًا من رجولتي، إن لم يأخذوها كلها. وما فائدة أن تكون بجهاز متكامل وأنت لا تشعر بأية رغبة جنسية على الإطلاق؟ أو كان أفضل أن ينتزعوه كله فأجد مبررًا لعينا أسوقه دفاعًا عن رجولتي؟ في مراهقتي كنت أتابع قنوات الأغاني الأجنبية، وحمام مدرستي الثانوية شهد الكثير من حيواناتي المنوية التي قُذفت على أفخاذ ومؤخرات زميلاتي العارية. كنت محبوبًا وكان جزءًا من شهرتي أني الأخ الأصغر لسمير راعي الفضيلة والذي يذهب في وقت الصلاة ليفتح مسجد المدرسة ويؤذن. ثم في بداية شبابي انفجرتُ على طاقة الحرية التي هبت على مدينتنا، لكن ملاقاة الموت لا تعيد الإنسان كما كان. وجثث الموتى المبعثرة تترك ندبات داخل الروح، فتفقد كل الرغبة في الحياة وتنغمس أكثر في عالمك الخاص. أتمنى أحيانًا لو لم يحدث كل ذلك، وأفكر ماذا لو كنت أكملت حياتي السابقة؟ دون سماء ولا هتاف ولا ندوب؟ الدكتور عاصم وجه البومة وضع علامات فوق أماكن متفرقة من جسدي وهذه العلامات تظل باقية طوال فترة العلاج لأنها الأماكن التي يجب تسليط الإشعاع عليها. أقف أمام المرآة أتأمل حديبتي وتهدلي وضلوعي البارزة وأرى علامات الإشعاع كأوشام صغيرة، بالطبع ثمة دائرة لعينة بفت زانية حول جهازي. اعتدت خلع ملابسي والاستلقاء

عاريًا أمام هبة أثناء تعرضي للإشعاع. أحيانا تمسك بجهازي وتضبط وضعه وأشعر أن مسكتها هذه بلا داعٍ حقيقي. أحببت التدلل عليها فأتصنع معاناة في خلع ملابسي لتأتي وتساعدني. والحقيقة أن هبة هي الوحيدة التي لا أخجل من جسدي أمامها. والوحيدة أيضًا التي لا تحيطني بنظرة شفقة، بل يمكنك أن ترى في عينيها نظرة إعجاب من حين لآخر. وانظر لجانب مشرق آخر فإنها تفهم مرضي جيدًا ولا حاجة معها لإثبات رجولتي. وهبة لها جسد عريض ووجه مألوف الملامح بجبهة واسعة تغطيها خصلة كبيرة من شعرها ملونة بلون برتقالي تبرز من أسفل حجابها، وعينان فيهما قليلٌ من الخَوَل، ولها أنف منبعج قليلا، وشفتان مكتنزتان، أراهما قبل جلستي معها مطليتين حديثًا بطلاء أحمر وقح لامع كأنما طُليا خصيصًا لأجلي. لم أشعر أبدًا أن جسدي عائق أمام حياتي العاطفية، وكنت كلما أعجبت بواحدة ذهبت إليها دون مهابة، لكن الندوب التي خُفرت في غفلةٍ منا وهؤلاء الذين وثقنا فيهم وخذلونا جعلوني بمجرد أن أفتح فمي أشعر أن إعجابي بها ليس حقيقيا، وبمجرد أن تتكلم هي أستشعر خواءً رهيبًا كثقب أسود في منتصف صدري يبتلع كل الأشياء وافتعالًا لا نهاية له. فالناس تزيف أنفسها دائمًا في البدايات، ولا يمكنك أبدًا معرفة الحقيقة إلا بانتهاء البداية التي هي أجمل ما في الأمر كله. إذن أقدسُ شيء في الحب المأفون مزيفا حاولت مرارًا لكن زيف البدايات الشنيع يوقفني دائمًا

كحارس أسطوري بألف رأس يقف على مدخل مغارة فارغة. وفكرت كثيرًا في حبٍ بلا بدايات لكني وجدت الزيف ملاصقًا للحب، فحتى حين تنتهي البدايات، لا تصدق إن كانوا يفعلون ما يفعلونه لأنهم متحابُّون حقًا أم لأنهم يتبعون كتالوج الحب كما قرؤوه في الكتب وشاهدوه في الأفلام. هل يفعلون ذلك لأن كلًا يحب الآخر حقًا أم لأنه يحب ذاته ويحب أن يمارس دورًا لعينًا مُتخيلًا؟ أم يفعلونه لأن لديهم مشاعر غريزية يسقطونها على أول من يروه؟! فكرت مرة تفكيرًا فرويديًا وقلت إنهم يُخضعون كل هذه المشاعر ليبرروا الجنس، وإن كان مرضي قد نجاني من الجنس فقد أفلتُّ من الحب. أنا ممتن لمرضي رغم الألم، فأنا مثل أي إنسان لعين، رغم كل ما رأيته، كانت تغزوني شهوات الجسد، وتشغلني عن رغبات الروح، ولعل تلك آفة مدينتنا. فأهل مدينتنا غارقون في ملذاتهم ومنسحقون في عدْوهم خلف شهواتهم المادية، قلقين حد الأرق لأن رغبات الروح تقض مضاجعهم لكنهم بهائم مناجيس لا يدركون ذلك، فيسعون أكثر خلف مزيد من الملذات محاولين الامتلاء، لكنها لا تُفضي إلا إلى مزيد من الأرق ومزيد من اللهاث. نعم يا عزيزي إنه عصر جديد لعين ابن زانية، عصر مرثاة أبدية. وسيليا تقول إنها قرأت نظرية تفسر حالتي: إن العاجز جنسيًا يتحول لكائن "أخلاقي" وعدو لكل أنواع المتع. السائل الكيماوي البغيض أفقدني التذوق ولم أستعده بعد، وعاصم وجه النسوة يقول: مسألة وقت. لقد

تأخر أكثر من اللازم. ثم قرب نظارته من عينه أكثر وأكمل: unknown case! لذا كنت آكل وأشرب وأخراً حتى أقل من بهيمة عجماء. كنت سعيدًا مترفعًا عن رغبات الجسد الزنيم. سألني أمام أمي بوقاحة: هل تشعر بأية رغبات جنسية؟ فنظرتُ لي أمي، لم أقل شيئًا واكتفيت بنظرة واضحة. قال: لا تقلق هذه من أعراض مرضك المشهورة. مسألة وقت. سألت أمي بقلق: متى تنتهي يا دكتور؟ نريد تزويجه قبل أن يفوته القطار كل شيء مسألة وقت في هذه المدينة، نعم إنه عصر جديد، عصر السرعة القصوى، مسألة وقت، ولا يسعنا الانتظار فكل شيء حولنا يهرول في سباق نجس، تلهث والقطار ابن الزانية لا يتوقف. والراكضون المناجيس يتنافسون بعضهم بشراسةٍ دهرًا دون خط وصول لعين أو حتى جائزة لعينة. سألتها: متى تنتهي هذه الجلسات؟ قالت بغنج: خلاص مللت منا؟ تريد أن تذهب ولا ترانا مرة أخرى؟ قلت: لماذا؟ سأراكِ حتمًا. نحن أصدقاء. لكن ألا يمكن أن نلتقي في مكانٍ أفضل من هذا؟ قالت وفي عينيها إغواء رهيب: لم أكن أعرف أننا أصدقاء. قلت مؤكدًا: بالطبع أصدقاء. ابتسمتْ ولم تعلق وانشغلتْ في بعض الأشياء فتصنعتُ المعاناة في ارتداء ملابسي فجاءت تساعدني كالعادة، وأحيانًا ما تلمس مؤخرتي أو جهازي ولا يمكنني الجزم أهو تحرش أم جزء من سياق عملها، لكني رجل لعين ابن زانية والرجل اللعين ابن الزانية لا يمكنه أن يفهم لمس مؤخرته سوى بطريقة

واحدة لعينة. قلت لها: هل لديك حالات أخرى؟ قالت: لا. ختامه مسك. قلت: أين تسكنين؟ قالت: لماذا تسأل؟ تزرر أزرار قميصي ثم تدخل برأسها خلف رقبتي لتعدل ياقته فتقترب أنفاسها ساخنة مني، وأفكر هل ستقوم رغبتي الآن لكنْ شيئًا لا يحدث. قلت: ما رأيك أن أوصلك اليوم؟ قالت مترددة: وماذا يقول الناس؟ قلت: لا أحد ينتبه في هذه المدينة كل واحد في شأنه. قالت: تؤ! أنت لا تعرف منطقتنا. قلت راجيًا وهي تلبسني حذائي: على الأقل أوصلك لباب المستشفى وأدعوك على شيء من الكافيتيريا! ما رأيك؟ نظرت لي بعينيها الخبيثتين: ولماذا اليوم بالتحديد؟ قلت: وما المشكلة؟ اليوم ولا غدًا؟ قالت وهي تغض بصرها كأنها خجلى: طيب! إن كنت مصرًا، لكن لن نتأخر وإلا قتلتني أمي. في وسط المستشفى توجد مساحة خضراء لا تصل إلى حديقة، بأشجار متناثرة وكراسي خشبية ورخامية مترامية، طلبت منها الجلوس قليلًا ريثما أشتري القهوة من محل ستار بكس الموجود على جانب، وأنا لا أحب ستار بكس ولا أحب كل هذه الماكينات المغشوشة لكني جنتلمان ابن زانية. نظرت حولها بتردد فقلت: لا تقلقي سنذهب سريعًا. قالت متمتمة: لا أريد أن يراني أحد وإلا حدثت مشكلة. سألتها عما تفضل من باب الذوق فقالت: أي شيء. قلت: لا، لا بُد أن تختاري. قالت: طيب كاباتشينو. وفي مدينتنا الكل يشرب من ستار بكس ويأكل من ماكدونالز حتى لو لم يفهم ما الذي يطلبه،

وحتى لو أصابه إسهال أو تسمم غذائي. طلبت لها موكا بيضاء وطلبت لنفسي قهوة لاتيه نجسة. رسم الباريستا سنبلتين لعينتين، وكتب اسم كل منا على مشروبه. ناولتها كوبها فأمسكته وشمته قليلًا كحيوان بدائي. قلت: رائحة القهوة تنعش. قالت: آه خصوصًا بعد يوم مرهق في العمل. ثم التفتت لي فجأة: ألا صحيح ماذا تعمل؟ أنا حتى الآن لا أعرف ما هو عملك. قلت: أنا لا أعمل شيئًا. بدا على وجهها الاستياء فاستدركتْ: وماذا أعمل في هذه المدينة؟ قالت: أي شيء! الشغل ليس عيبًا. قلت: أنتِ تعرفين مدينتنا، أن تعمل فيها يعني أن تفتتح مطعمًا أو محل ملابس، أو على الأقل تعمل في أحدهما فهما أكثر شيء هنا. قالت: الأكل والملبس لا يخسران أبدًا. قلت: طبعًا لا يخسران، كل مائة متر مطعم، ومحل ملابس فخم يدعي أنه ماركة عالمية وهو مجرد صورة مقلدة مغشوشة. قالت: أنا أعرف عائلتكم، كل المدينة تعرفها، لماذا لا يفتتح لك أبوك مشروعًا؟ لماذا لم تدخل طب الأسنان وتساعده؟ قلت: ليس هذا ما أريده لحياتي. وهي ترشف قهوتها قالت: غدًا تُشفى وتكون رهوانًا والذي أعرفه أن على الرجل العمل وإلا كيف ستتزوج؟ قلت: ومن قد ترغب في الزواج بي بحالتي هذه؟ ابتلعتْ قليلًا من السائل الساخن فهذه الأكواب اللعينة التي يصنعونها لا هدف منها سوى إلقاء السائل الحار في بلعومك أو على عانة بنطلونك فتبدو كطفل تبول على ذاته. سعلتْ قليلًا فقلت بسخرية لم

تفهمها: حلو الكاباتشينو؟ أومأت برأسها، وقالت: بنات الحلال كثيرات أنت فقط لا تنظر بعين سليمة. قلت: حقًا؟ قالت بدلال: طبعًا، أنت رجل وسيد الرجال وقلبك أبيض وشكلك ابن حلال وطيب والمرض ليس عيبًا وغدًا تُشفى وتقول هبة قالت. ثم بمزيد من الدلال: المهم لا تنسانا ساعتها. ثم أكملت بإصرار سخيف: لكن عليك البحث عن عمل وإلا كيف سيوافق عليك أهل بنت الحلال؟ قلت: أريد أن أصبح عالم فلك أو رائد فضاء. ضربتني بكفها على كتفي ضاحكة: لا تسخر مني. رائد فضاء مرة واحدة. قلت وأنا أنظر لأعلى: أريد استكشاف السماء. ثم سكتُّ للحظة وأردفتُ: هل نظرتِ يومًا إلى السماء؟ قالت: آه كل يوم ما هي موجودة كل يوم أين ستروح؟ قلت: معك حق! أين ستروح؟ يا للإنسان من وغد زنيم يعتاد كل شيء حتى سماء معجزة بهذا الجمال. قلت: لكن أقصد هل تأملتها يومًا؟ هل لفتتك رعشة النجوم؟ هل فتنتك سحابة عابرة أمام القمر؟ هل انبهرت بانبثاق النور من وسط العتمة الحالكة؟ شعاع الشمس الذي يتسرب في يوم غائم؟ قالت: واضح أن الجلسات أثرت عليك. قلت غاضبًا: أنا لا أمزح. قالت: ولا أنا. لكن بالله عليك كيف أرى النجوم وسط كل هذه العمارات العالية المتلاصقة في بعضها؟ أساسًا أنا لو خرجت في الشرفة ورفعت رأسي لأعلى لظنوا جميعًا أني أعاكس ابن الجيران. ثم استدركتْ: أنا أتذكر مرةً في الكلية إعلانهم عن رحلة لوادي الحيتان لرؤية النجوم،

وكان معهم تليسكوبات وحاجات، أصلًا كانت رحلة تابعة لواحد مجنون غاوي هذه الأمور التي تقولها، لم أذهب معهم طبعًا. وهل أنا بلهاء لأدفع مائتي جنيه لأذهب لأرى السماء الموجودة فوقي طول الوقت؟ قلت وارتشفت رشفة من القهوة وحمدتُ الله أني لم أتذوق بعد: معكِ حق. لا حاجة بنا للذهاب إلى أي مكان لرؤية السماء. قالت: طبعًا لكن هم ذهبوا هناك باعتبار أنه خلاء ولا توجد كهرباء تعيق عن الرؤية. ثم ضحكتْ: قال يعني لما نقعد من غير كهرباء ستتغير السماء! أنا لا أمانع الذهاب في رحلةٍ رومانسية مثل هذه لكن مع حبيبي نرقد جنبًا لجنب ونشوف السماء ويقول لي كلامًا حلوًا وهو يحتضن يدي، إنما أنا عمري ما كان لي حبيب. قلت: لكن الكهرباء تحاول أن تصنع سماءً بديلة، ألا تعتقدين؟ قالت: طبعًا لا. السماء موجودة كل يوم هل يُعالج الناس بضوء النجوم؟ لكن الكهرباء هي الأجهزة التي تحيي الموتى، وتبقي الأحياء، السماء لا تنقذ الناس من الموت لكن الكهرباء تفعل. قلت: لكن الناس يموتون كل يوم رغم ذلك. قالت: وما العلاقة؟ هل ينفي ذلك كل هؤلاء المرضى الذين يدخلون المستشفى شبه أموات ثم يخرجون يمارسون حياتهم؟ أنت نفسك ألم تكن لتدفن تحت التراب – بعد الشر – لولا الكهرباء؟ ثم قالت فجأة: كم الساعة؟ تأخرت. تمشينا معًا في طرقات المستشفى، تعمّدتُ التلكؤ قليلًا متحججًا برمي أكواب القهوة لأراها تهز ردفيها كبطة تتبختر. وصلنا لبوابة

الخروج فوقفتُ والتفتت نحوي بابتسامة عريضة: شكرًا على القهوة. قلت: بل الشكر أنكِ وافقتِ. مددت يدي لأصافحها قائلًا: أوصلك للبيت؟ فمدت يدها: سيرانا الناس. وأبقيت يدي في يدها قليلًا، فكرت في كل المرات التي حاولت فيها إيقاظ شهوتي عامدة أو غير ذلك، عبرت أمامي في تتابع سريع واعتراني شعور بالخجل وبأني أدين لها بشيء ما رجولي. سحبت يدها ببطء وعيناها تبرقان ثم لوّحت وهي تغادر. وقفتُ قليلًا مكاني أراقبها وهي تهز أردافها بغنج كأنها تراني أراقبها بعينين خلفيتين لعينتين حتى ابتعدت قليلًا وبدت رؤيتها عسيرة. عدوت من فوري وأنا أنادي: هبة يا هبة.. وصلتُ إليها منقطع الأنفاس فالتفتت: أستاذ سامر.. خير كفى الله الشر. أشرت لها بيدي لتنتظر قليلًا وأنا أنثني لاهثا مستندًا على ذراعها، ثم استجمعت أنفاسي وقلت لها: لقد نسيتُ شيئا أدين لكِ به. قالت مدهوشة: تدين لي؟ قلت: نعم. وأمسكتها من رأسها المغطاة بحجاب رمادي وقبلت فمها. وقفتُ لحظةً مصدومة ونذّت عنها تمتمة خفيضة: نحن في الشارع. ثم تلفتتْ حولها كمن يفيق قبل أن تصفعني بقوة وتغادر دون كلام. وقفت واضعًا يدي مكان الصفعة ساكنًا وسمعت فتى يركب دراجة يقول: ماشية معك يا عم. وآخران يركبان دراجة بخارية قال السائق: الصراحة ذوقك عالي البنت فرس. وقال الآخر يلكزه: اجرِ خلينا نلحق بها. وسمعت تصفيقًا وتهليلًا وصفيرًا ورأيت الناس يخرجون من كل

حدب وصوب، ولمحتها هي تشير بيدها لتاكسي فتركبه وتهرب مسرعة قبل أن يلتم عليها الخلق. كان لزامًا عليَّ فعل ذلك كأي جنتلمان يحترم نفسه في نهاية موعد غرامي. نزلتُ على قدمي إلى كورنيش النيل وتمشيتُ جوار الماء الرقراق الغارق في مساحات قذرة من ورد أخضر مقزز يشبه العفن. أصابتني نفحة من الهواء فشعرت بسخونة خدي مكان يدها، وفكرت أكانت صفعتها هذه حقيقية؟ أعني أنابعة من داخلها؟ أم هي رد فعل مفتعل شعرت أنه واجب عليها لأننا في الشارع أولًا ولكي لا أظن فيها سوءًا ثانيًا؟ لا يمكنك الجزم أبدًا. حتى قبلتي ذاتها لا يمكنني تأكيد صدقها. مشيت بلا هدى جوار النيل أتأمله صامتًا وأصوات الناس الواقفة تخدش بهاء الليل: مركب يا بيه.. مركب يا أستاذ.. دخان الذرة والبطاطا وحمص الشام يملأن حلقك فتسعل، وتكاد تصدم المرأة المتربعة على الأرض وأمامها صحن ترمس ضخم على أطرافه تكوّمت قطع ليمون صغيرة وجواره كومة عالية من الأطباق البلاستيكية البيضاء. ترى العجائز جالسين بصنانيرهم على كراسٍ صغيرة ينتظرون أسماكًا لن تأتي، ويخدش عينك بهرجة أضواء السفن الضخمة التي تجوب النهر وفوقها أناس يرقصون على أنغام صاخبة بكلمات حزينة. تتداخل أصواتهم مع أبواق السيارات المتزاحمة قرب مدخل نادي الجزيرة أسفل تمثال الكاتب الشهير المزيف مثل كل هذه المدينة، مع أصوات الكلاب العابثة بجرّها أصحابها من سلاسلها

وهم يتمشون على الكورنيش أو يجلسون جماعات وكل جماعة تملك كلبًا تتظرّف به على الخلق، وتملك كذلك أبلهًا لعينًا ابن زانية يمازح الكلب ويحاول تشريسه فيزداد نباحه صخبًا ويرفع مؤشر الضوضاء ديسبلًا آخر. كل هذا يحدث أمام هذه السماء، ولا أحد يرفع بصره لحظة ليتأمل حُسن الفجرية ذات الشعر الأسود الفاحم، فالعيون في الهواتف أو مشغولة بالأنوار اللانهائية أو تتفرج على الخلق ماذا يأكلون ويرتدون وما يركبون ومن يصاحبون. مشيت غير عابئ بالمدينة وبأهلها لكنها طاردتني ببافطات لعينة تملأ الشارع طولًا وعرضًا. الحاج سلطان البنداري صاحب محلات اللانجيري العصري يدعم بكل الحب قائمة حزب "الأف أح" في مجلس الشيوخ لأجل مستقبل أفضل. وطبعًا صورة أبي واقفًا ببدلته الرسمية في منتصف الرجال الواقفين تملأ البافطة. عائلة الشويحي عنهم دكتور عاصم الشويحي تؤيد الأستاذ الدكتور سرور حسنين في انتخابات مجلس الشيوخ وصورة أبي يقف مصافحًا عاصم ابن الزانية وأسفلها عنوان مستشفاه وأرقام الاستقبال والإسعاف. محلات رجب الكبابجي تبايع الدكتور سرور حسنين لمجلس الشيوخ وتحتها صورة أسياخ كباب وطبق أرز أصفر لعين. السيد اللواء أسامة محي الدين يؤيد ويدعم قائمة حزب "الأف أح" لانتخابات مجلس الشيوخ من أجل مستقبل أفضل لمدينتنا. السيد اللواء الذي لا يطيقني أو يطيق إخوتي لما نجلبه له من فضائح، السيد

اللواء الذي لا يزال في الخدمة وليس من حقه الاشتغال بالسياسة، لكن كل شيء جائز في مدينتنا لأن كل شيء مزيف حتى القانون. عصر جديد يا عزيزي عصر الثورات، عصر المصالح، عصر كل شيء وعكسه، عصر الأف أخ. انظر حتى لياقطة السيد محمد النجار وولده فوزي النجار يدعمان أبي في المجلس! وما الذي يفعله أصلًا مجلس الشيوخ؟ والله لا أنا ولا المدينة ولا المرشحون أنفسهم يفهمون ما الذي يفعله مجلس الشيوخ! الناس تتنزه بكلابها على المحيط في ميامي ونحن نتنزه هنا على النيل. الناس تنتخب السيناتورز في مجلس الشيوخ في نيويورك ونحن ننتخب النواب في مجلس الشيوخ هنا في مدينتنا. الناس تأكل من كنتاكي وماكدونالدز وهارديز في كاليفورنيا وتشرب قهوتها من ستار بكس ودنكن دونتس في فلوريدا ونحن نفعل ذلك في المشابة العلوية. نحن لسنا أقل من أمريكا اللعينة في شيء. مدينتنا قوة عظمى في هذا العالم ابن الزانية. أمريكا لديها عنصرية لدينا عنصرية أشد منها، فلو نظرت الناحية الأخرى من النيل ستجد مدينة صغيرة لا تختلف كثيرًا عن مدينتنا بل هي تعتبر جزءًا فعليًا من المدينة، يربط بيننا وبينها جسران إنكليزيان عتيقان، أحدهما مخصص للقطارات والآخر للسيارات مزين بأضواء زرقاء قبيحة، وإذا أخبر أحدهم بأنه من المدينة الأخرى دوّت الضحكات الساخرة، أوه لست من مدينتنا! فلاح لعين ابن زانية! جئت تلوث مدينتنا المقدسة. وإذا خرج أهل مدينتنا منها

إلى مدن أكبر عُوملوا بمثل ذلك أو أكثر: أرياف، أحفاد لويس التاسع، أحفاد الفرنسيين، بلد اللبن، النسوان الحلوة. هذه بلد بنت زانية صدقني. نحن لسنا أقل من أمريكا في شيء. انظر لكل هذه اللافتات: واحدة عليها طبيب قميء يرتدي زي الجراحين بابتسامة لزجة ووجه مقزز ومكتوب: جربتي الولادة بدون ألم مع دكتور... وأخرى لطبيب يرتدي بدلة سوداء ويحمل سبعة أطفال بين يديه وله شارب قذر وبجواره كُتب: حلم الأمومة هيبقى حقيقي مع الدكتور... وثالثة لآخر يقف ممسكًا بيده شيئًا يشبه المكواة ويرتدي زيًا جراحيًا كحليًا ومكتوب بجواره: للتخلص من آثار الولادة وشد البطن بتقنية الكرواسون الحديثة مع الدكتور... ورابعة لآخر يقف على يمين الصورة أشيب الشعر ببدلة رمادية وعلى يسار الصورة يقف شاب ببدلة كحلية وفي المنتصف مركز الدكتور... والدكتور... لعلاج الضعف الجنسي والعقم.. طبعًا الدكتور الشاب هو ابن الدكتور الأشيب. تمامًا كحلم أبي اللعين. أتأمل ابتسامة هذا الشاب وأتخيلني مكانه أقف مجاورًا لأبي على صورة دنسة فأحمد الله على المرض مجددًا. وكأن الإنجاب هو صلب الوجود، إذا لم تنجب فأنت ميت، آه يا أولاد الزواني تنجب كي تضع المزيد من البيض في الكراتين اللعينة في مصانع تفريخ لا تنتهي. كي تورث جيناتك الفاسدة المنجوسة. أين أنتم يا أصحاب اليوجينيا! مزيفون كلاب. نزلت على السلم الحجري عبر الفتحة الموجودة في سور

الكورنيش الأخضر القاتم دون عظيم بناء كباب يُفضي لسُلّم منحوت وسط الصخر ينتهي بقاعدة حجرية مربعة عريضة ترسو أمامها العبّارة التي تعبر بالناس بين مدينتنا والمدينة الأخرى عبر النهر العظيم. رأيت المركب ذا المحرك المزعج يمخر الماء الأسود ويصنع خلفه موجًا يشبه سحابة، متجهة نحو المدينة الأخرى، فعرفت أني سأنتظر قليلًا قبل أن يمتلئ المرسى بالعابرين فتعود السفينة حاملة القادمين إلينا وتحيلنا لمغادرين، ألسنا نحن مركز العالم وكل الكون يدور حولنا؟ فنحدد الآتي من الرائح، رغم أنّا جميعًا عابرون تائهون بلا مرسى! كنت وحدي فهممت بالجلوس على كتلةٍ صخرية، ثم سمعت صوتًا ينادي من العتمة: يا بني.. يا بني.. أنت يا بني.. تلفتُ حولي: أنا؟ قال الصوت: يا فرج الله.. نعم أنتَ.. تعالى يا بني اتصل بالولد لؤي.. ظهرت إضاءة هاتف نقّال وبدأت ملامح الجسد المحني تظهر تدريجيًا لعيني، توجهت ناحيته ماشيًا عدة خطوات بحذر، أستند بين كل واحدة وأخرى على المنحدر الأسمنتي الذي ينساب من سور الكورنيش مائلًا بحِدّة حتى يصل لقاعدة مسطحة ترابية صغيرة تكفي بالكاد لقدمي إنسان واحد، فيستحيل أن يسير فوقها اثنان متأبطان متوازيان أفقيًا مع النيل العظيم. على تلك القاعدة وفي مكان معتم قليلًا (فأعمدة الإنارة على الكورنيش لا تعمل جيدًا إلا على طرفيه: ناحية نادي الجزيرة وناحية مبنى المحافظة، أما المنتصف

فيغرق في عتمة باهتة يفصلها كل عدة أمتار عمود يشع نورًا أزرق جنائزيًا كضوء مشرحة) جلس على ورقة جرائد بالية محني الظهر يرتدي جلبابًا بنيًا رثًا، ورغم ذلك تشع منه رائحة الياسمين. ترتعش يده التي تحمل الهاتف الذي يضيء كل حين إثر ضغطات أصابعه المرتجفة على الأزرار. قال: وحياة النبي يا بني تتصل به.. يا فرج الله. أخذت الهاتف العتيق الأسود ذا الشاشة الخضراء من يده وسألت: اسمه على الهاتف لؤي؟ قال: آه ستجده عندك في القائمة، تبدو لا تفهم في هذه الأمور. هززت رأسي وأنا أكتشف كيفية فتح هاتف قديم مثل هذا وقلت: وطالما أنت تفهم بسم الله ما شاء الله لماذا لا تتصل أنت به؟ قال: الله يسامحك يا بني، أنت زعلت مني؟ كنت أمازحك. العتب على النظر يا بني. قلت: لا مشكلة الهاتف يرن الآن. وأعدته إلى يده فرفعه أمام فيه وأخذ يتحدث صارخًا: ألو ألو يا لؤي. ثم يرفع الهاتف إلى أذنه ليسمع وينزله مرة أخرى أمام فمه ليتكلم: أين أنت يا ابن الكلب؟ ألو ألو.. ثم وضع الهاتف مرة أخرى في يده كأنما يعطينيه وقال: مش شغال يا بني. أخذت الهاتف ووضعته على أذني قلت: ألو.. قال المتحدث - الذي هو لؤي كما يُفترض -: ألو ألو.. من معي؟ قلت غاضبًا: أنا أساعد أبوك العجوز هذا طلب مني الاتصال برقمك اللعين. قال: على مهلك يا عم، لا أقصد، ربنا يخليك ممكن تجلس معه خمس دقائق فقط أنا في الطريق. أوشكت على الاعتراض لكنه أغلق

الهاتف في وجهي. أنا الملعون بلعنة صرت تعرفها جيدًا. قلت: هو في الطريق. قال: يا فرج الله. سامحني يا بني أتعبتك، والله ساعة أنادي ولم يلبِ ندائي غيرك، سمعت خطوك على السلم فقلت ابن حلال وسيساعدني. تحسس جلبابه بيده الأخرى قبل أن يجد جيبه العلوي ثم يضع فيه الهاتف. بالطبع كان أعمى. يجلس واضعًا صنارته الغاب بين فخذيه وخطافها يسقط في طرف الماء الآسن المليء بالقمامة والبلاستيكيات، بجواره كيس صغير مليء بأحشاء مقززة تخرج منه رائحة نتنة. قال: ماذا قال لك لؤي؟ قلت: في الطريق. خمس دقائق. ضحك بصوت هرم ضحكة متقطعة وسعل قليلًا ثم قال: خمس دقائق! ابن كلب مثل من خلفوه. ألم يقل لك إني جده؟ قلت: لا. قال: طبعا الأتاري خرب دماغه. كل يوم يأتي ويتمسكن ويرتجي: يا جدي يا جدي أعطني نقودًا. أين تصرف نقودك يا ابن الكلب؟ داهية تكون تشرب سم هاري. يقول: لا والله يا جدي أنا فقط ألعب بلايستيشن. وما هو هذا البليستوشن يا بني؟ قلت: جهاز عليه ألعاب إلكترونية. قال: أتاري يعني! أصل عمك عطية يفهمها وهي طائرة. ابتسمت وجلست جواره على حجر مسحته قليلًا بيدي، قال: آه طبعًا.. لؤي هذا ابن ابن بنتي. آه عمك عطية لا يبان عليه الحمد لله. أذممك هل تتخيل أن لي أحفاد من أصله؟ ألا أبدو في العشرين؟ ثم ضحك حتى خشخش صدره وسعل. تحسس الهواء حتى وصل لغايته فحركها قليلًا ثم قال: دنيا!

أتأخذ زماننا وزمن غيرنا؟ قل لي: أنت متزوج؟ قلت: لا. قال: ولا خاطب؟ قلت: أيضًا لا. قال: عندك كم سنة يا بني؟ قلت: ليس الكثير. قال: دعني أخمن. مسح يده الخشنة في جلبابه مرتين ثم وضعها على وجهي وبدأ يتحسسه بلطف. رائحة يده تثير الغثيان لكني صمدت. حين وجد حاجبيّ رقيقين ووجهي ناعمًا كعائلة عروس ورأسي لا يفرق كثيرًا عن مؤخرتي توقّف عن التحسس وصمت قليلًا. تشاغل بالبحث عن كيس الأحشاء مثيرًا بعض الغبار حتى وصل إليه بيدٍ متسخة وأمسك بعضها وألقاه بكل ما لديه من قوة فسقط منها ما سقط أسفل قدميه واختفى الباقي وسط القمامة التي بطولها الماء كل حين بدفقة واهية. قال: ما اسمك؟ قلت: ألم تعرف سني فتسأل على اسمي؟ قال هادئًا: أريد اسمك كاملًا لأدعو لك عند المقام. قلت: أي مقام؟ قال خاشعًا: مقام سيدنا حسنين يا... قلت لي ما اسمك؟ قلت: سامر. قال: سامر ماذا؟ قلتُ ضجرًا: سامر سرور حسنين. قال وهو يلوك الاسم في فمه ببطء: سامر.. سرور.. حسنين.. سرور حسنين؟ سرور حسنين! ابن سرور حسنين دكتور الأسنان؟ قلت: نعم. الآن سيبدأ فقرة الشحاذة المعتادة، لو سمحت أدخل حفيدي مدرسة كذا أو أرجوك أخبر الوالد أن الحي يفعل فينا كذا أو كذا، بالله عليك البلدية كل يوم تأخذ بضاعتنا.. لوك لوك.. لن تنتهي هذه الليلة المشؤومة.. تأملت العبّارة التي وصلت لمرساها في المدينة الأخرى ووقفتُ تنتظر وشعرت بأني

أغوص في ثقب سرمدي من عوالم كريستوفر نولان يتيه فيه الزمن. قال: أليس عيبًا عليك أن تكون ابن الدكتور سرور ولا تعرف سيدي حسنين الشهاوي؟ قلت: هو ليس جدي، تشابه أسماء ليس إلا. قال: طبعًا ليس جدك. سيدنا مات وشبع موت من قبل حتى أن يولد جدك عبد الحميد لكن بركاته لا تزال تملؤنا. قلت وقد أثارني الفضول: هل تعرف جدي؟ قال وهو يهز صنارته ويعدل وضعها ويقول ساعلًا: ومن لا يعرف جدك؟ جدك كان باشا. وهو يربت على رقبته قال: أوامر البشوات على رقابنا يا باشا، لو لم ننفذها -ثم وهو يشير إشارة الذبح- تطير. تأملت الدومينو دون أن أسمع ما يقوله، في مقهى "البشوات" الواقع على الناصية المقابلة للعزبة. كانا يلعبان كالعادة، كأنهما جالسان منذ آخر ليلة التقينا فيها جلستهما الأزلية. لا أعرف كيف لملمت نفسي وأنا أدخل عليهم مرتديًا ملابس رضا الفضفاضة والتي تمزق منها أجزاء كثيرة، فور رآني سيد المدب، قال: سامر بك، تفضل معاليك. انضممت لهما، أخذ يتحدث معتذرًا عما حدث في التخشيبة، ويقول إن الشاويش عبد المحسن رجل طيب ولا يرضيه كل ذلك لكنه يطيع الأوامر. كانت الخطة واضحة تمامًا في رأسي لكن لا بد لي من مساعدين، وأنا لا أعرف غير هؤلاء يمكنهم مساعدتي في أمر مثل ذلك. قال: أرجو يا باشا ألا يصل الأمر إلى فوق، وإلا أنت تعرف لن يُؤذى أحد سوى الشاويش عبد المحسن. حتى المساجين أولاد الكلاب

الذين ضايقوك لن يحدث لهم شيء. أخرجت عدة رزم من فئة المائتين ووضعتها على الطاولة، نظرا لبعضهما ثم بسرعة وضع دوكشة يده فوقها ليخفيها عن الأعين وهو يتلفت حوله: ماذا تفعل؟ سنُدفن هنا! قلت: أريدكما أن تساعداني. في تلك اللحظة دخل علينا الكابتن زلطة عينه غائرة فعرفت أنه منتش. جلس وألقى السلام ولم يرد أحد. قال سيد المدب خائفًا: لا مؤاخذة يا باشا نساعدك في ماذا؟ قلت: لو تريد أن تنقذ الشاويش عبد المحسن، بل وتنقذ نفسك أيضًا، يمكنني أن أعطيكم جميعًا رزمًا مثل هذه كل شهر وأكثر. لم يكن إقناعهم صعبًا في الحقيقة رغم أني تخيلت عكس ذلك. سيجارة ملغمة من سجائر زلطة تناوبت على أفواههم وأخذت منها نفسًا عميقًا، فأصابني بعض الدوار لكني شعرت بصفاء داخلي جعلني أتحكم في هذا الدوار وأوقفه كذلك. الخطة في الأساس أن نذهب إلى محطة الكهرباء ونغلقها. لا نعرف شكل المحطة من الداخل ولا توجد خرائط على الإنترنت ولا أحد فينا يفهم في الكهرباء، قلت لدوكشة: أنت الوحيد الذي يمكنه أن يفهم قليلًا في هذه المحطات. قال مترددًا: يا باشا هذه مصلحة خطيرة. وأكد سيد المدب على كلامه: طبعًا هذا أمن قومي. قال زلطة: لا يهمني حتى لو كان قصر الرئاسة. لطمه سيد: البانجو خرب دماغك. قلت: لا تضيعوا وقتي، أنا سأفعلها بكم أو بغيركم. ثم بدأت ألم النقود مرة أخرى، فأوقفاني: الكلام أخذ وعطاء يا أستاذ. قال دوكشة:

ماذا لو قُبض علينا؟ قلت: لن ينتبه أحد، لقد وقفت من قبل ساعة أصرخ وأرمي أحجارًا عليهم ولولا مرور دورية الحراسة بالصدفة لما انتبهوا. قال أمين الشرطة سيد: عامةً الحراسة هناك حبايبي. لكن –ونظر لي– سنرش. أومأت برأسي. قال زلطة وهو ينفث الدخان: لكن لماذا تريد فصل الكهرباء عن المدينة؟ قلت: ليرى الناس السماء. انقلبوا ضاحكين وسعل زلطة وقال: سماء؟ أتظن أن هذا ما سيحدث في العتمة؟ ثم نخر وقال: هؤلاء الناس سيأكلون بعضهم. قلت: ما الفرق الذي سيحدثه معرفة السبب؟ قال سيد المدب: اطمئنانًا فقط يا باشا أنك لست شيوعيًا ولا وراءك أجندة ما! أخذوا يوزعون الرزم ويعدونها أسفل الطاولة وساد صمت طويل. ماءت بعض القطط وهي تقترب من كيس الأحشاء، فتحسس بيده ثم أخرج حفنة أخرى مقززة من الكيس وألقاها بيده على جانبه لتتلقفها القطط. قال: أواه على الدنيا غرفة وصالة بلدنا هذا! يفوت العمر ومصير الحي يتلاقى. جدك الله يرحمه إن مات.. قلت: لا يزال حيًا. قال مؤمنا: يرحمه الرحمن حي ولا ميت. ما الرحمة تجوز يا سامر أفندي. جدك هذا كان من أعيان المنطقة، كنت أنا وقتها فتى يافعًا يأتي مع أمه يبيع الحمام والجبن واللبن الطازج والذي منه أمام المقام. تركب حنطورًا يلف بنا الدنيا ولم تكن الشوارع مثل الشوارع ولا كان الناس مثل الناس. الحنطور يأخذنا من عند محطة القطار حتى المقام. وإن كان رزق اليوم وفيرًا فإن الحنطور

الذي يعود بنا يتبختر على الكورنيش عائدًا إلى المحطة. لا! الشوارع هذه لم تكن هنا، وكنت تمر على قصر الخديوي وتمر على مسرح الموسيقى العربية، لعلمك أنا حضرت هناك أكثر من حفلة للست، ودخلت في سينما عدن كل أفلام الترسو وعادل إمام. آه طبعًا عمك عطية سميع ويفهم في الفن! نحن عندنا سينما ومسرح وفن حتى من قبل دول بحالها! أظل وأنا طفل ضئيل منتظرًا أمي من الفجر وقد أبهرتني المدينة، تزعق فيّ أنها لن تأخذني معها، لكني أختبئ أسفل الحنطور الذي يأخذها للقطار، فتغادر ميت العرس وتنزل للمدينة البهية. طبعًا بهية وعروس النيل. وهل هناك مثلها؟ تُفاجأ بي في المحطة فلا تجد مفرًا من أخذي معها، تصل للمقام فتتركني مع الأغراض لأحرسها وتذهب لتصلي ركعتين، لكني طفلٌ عفريت أترك الأشياء وأتسلل خلفها إلى المقام ذي القبة الخضراء والهلال النحاسي، كان هلالًا ولا هلال السماء يصنعه عم بشير الطوخي من النحاس الخالص في سوق الحدادين. تظل تتمسح بالمقام وتدعو الله بحق صاحبه الشيخ حسنين المبارك أن يرزقها رزقًا حسنًا. وأنا في ذيل جلبابها الوردي البالي. ثم تجد الأفندية بطرابيشهم يقفون أمام طاولات خشبية عليها حلل وصواني من كل ما لذ وطاب، وجدك عبد الحميد باشا -بعد ما نالته بركات سيدنا وكان لا يزال شابًا- يقف بنفسه على رأس الخلق يوزع اللحم والطير والأرز والطحين، أكياس خلف أكياس، كل يوم ذهبت فيه للمقام، وجدت الخير

يُوزَّع. تنهرني أمي لكن إمام المسجد يأخذني منها ويلاعبني ويعطيني نصيبًا مضاعفًا من اللحم. وتقول أمي: أنت مرزق وتحب المقام، ربنا يحبك. وبدأت تتفاءل بوجودي وتأخذني معها. تفترش الأرض وألهو أنا بين المقام والجامع مع العيال، ثم يتجاوز لعبنا مساحته فندخل إلى حديقة جبانة الأروام، آه طبعًا.. لم ترَ أنتَ هذه الأشياء. كان أمام ساحة الجامع – في الميدان الحالي – ساحة خضراء مليئة بالورود والصلبان والتوابيت اليونانية. آه طبعًا. كان الخواجات أكثر من المصريين حتى. يأتي الواحد منهم ويعطيك وردة أو قطعة خبز بجبن مالح ناصع البياض بابتسامة وهو ينطق الحاء خاءً: تفضل خبيبي. طبعًا قبل أن يزيلوا الميتين والرفات والورود وتفضَّل خبيبي وينقلوها إلى خبر كان. آه طبعًا.. تعرف مدرسة فريدة حسان هذه؟ التي تجاور الكنيسة؟ هذه كانت مقابر المسيحيين وأمامها جبانة المسلمين التي أزالوها أيضًا وجعلوها الجمعية الشرعية السنية ونادي الشعب. قل للزمان ارجع يا زمان. قبل أن يجففوا الماء ويهيلوا فوقه التراب ويصنعوا طرقًا ويوسعوا المدينة. ألم يكن هناك سبيل للتوسيع دون هذا القبح؟ ألا بد أن تزيل الجمال كي توسع المدينة؟ والعسكري من هؤلاء ماذا يفهم في الجمال والفن؟ تأتيه الأوامر من فوق؛ وسِّع الشارع، اعمل ميدان، اعمل كوبري، فرِّج الناس على الإنجازات. والعسكري ينفذ الأوامر لأجل ترضى عنه القيادة، والقيادة تريد الإنجاز،

وتريد التوفير قبل الإنجاز. عمك عطية فيلسوف! آه طبعًا.. لم ندخل مدارس نعم، لكن الحنطور علم المرء الكثير. تأخذ الواحد من هؤلاء وتنقله من هنا لهناك ويتكلم معك عن الدنيا وحالها. لو كنت أعرف القراءة والكتابة لكتبت قصصًا أجمل من نجيب محفوظ. لكنها لا تحتاج إلى علام حين ترى القصور الجميلة تتحول إلى عمارات قبيحة وثكنات عسكرية، والماء العذب الذي يشرح القلب، يصير طريقًا أسمنتي أسود بارد ومقامات الأسياد مقالب قمامة الخلق. لما ترى الناس تستبدل الحصان بموتور مزعج، لا تحتاج لعلام يا سامر أفندي. لم أعلق فقال: شفاك الله وعافاك يا سامر أفندي. جدك رجل طيب. ولو دعيت لك عند صاحب المقام، سيير بدعوتي إكرامًا لجدك. قلت بلهجة سخرية: ما دمت مُصرًا. قال: أنتم شباب هذه الأيام تسخرون من كل ما آمن به أجدادكم. لا تستهين ببركات سيدنا حسنين يا سامر أفندي. لا تكن مثل المقريعي باشا. أتعرف القصة؟ لم لم يمنحني فرصة الرد وهو يهز غابة الصنارة المحشورة بين فخذيه، أكمل: طبعًا لا تعرفها. أنا نفسي لم أعرفها لولا أن حكتها لي أمي ستية الله يفتت الطوب تحت رأسها. ذكرتني بالذي كان يا سامر أفندي. أنا عارف المرض الخبيث الله يلعنه. بنت ابني ماتت به، لا أقصد الفأل السيئ أعوذ بالله. لكن أبوها لم يصدق في بركات شيخنا، وهل قلت كفرًا؟ ما هو ربك هو الشافي، سواء رحت لطبيب ولّا ولي. المهم الإيمان الذي في

القلب، لو أيقنت أن شفاءك على يد الطبيب ستُشفى، ولو استيقنت أن برأك على يد الولي ستبرأ. لكن أذممك، لما تكون العلة من عند الله، فمن أولى بأن تذهب إليه؟ من أقرب لله الشافي؟ الطبيب أم الولي؟ اسمع اسمع لكرامات سيدنا. المقريي هذا كان رجل مقتدر من الأعيان يجلس مهمومًا، مهموم مثلك، أنا أعمى البصر نعم، لكني لست أعمى القلب، وصوتك يحمل كمدًا لا يقدر جسدك العليل عليه. أنا خلاص قدم في الدنيا وقدم في الآخرة فلا تزعل مني لصراحتي. ما علينا! اسمع اسمع للعجب وكرامة أحباب الله.. مدد يا سيدنا مدد.. المقريي باشا كان يجلس مع خاصته في عوامته المطلة على النيل مهمومًا لأن الباب العالي يريدون أخذها، عوامته التي يقضي فيها سهرات الأنس والطرب، ثم يأتي سيدنا بملابسه الرثة، خذ بالك سيدنا لم يكن فقيرًا، لكن الغنى غنى النفس، آه طبعًا.. سيدنا كان يوزع كل ما لديه على فقراء النفس والمال، دخل على المقريي أشعث أغبر وضربه بعصاه التي يتكئ عليها في مشيه على رأسه وقال: مالك مهموم يا مقريي؟ كأني طفلٌ صغير يا سامر أفندي، جالسٌ بين يدي أمي وهي تقص عليّ قصة المقام وصاحبه. أواه يا دنيا! تفر من بين أيدينا كبرغوث. المقريي طبعًا اندهش من هذا الفقير الذي يضربه بعصا على رأسه، هو الباشا الكبير، فأمر رجاله بإبعاد سيدنا، فقام سيدنا وفرش سجادته على ماء النيل وصلى ركعتين، فلما رأى المقريي هذه الكرامة المعجزة، جرى

إلى سيدنا وقبل يده واعتذر، قال سيدنا: لا تخف على عوامتك يا مقريعي وخف على ما يستحق الخوف عليه. والباب العالي تراجع عن أخذ عوامة الباشا، سبحان الله! كرامة لسيدنا، والمقريعي باشا لم ينتظر وبنى مدرسة ضخمة ومسجدًا، وأقام مقامًا للشيخ حين مات جوار الجامع. اذهب وانظر الآن لحال المقام! تلاقي القمامة في كل مكان، ضموا المقام للمسجد، وضموا أيضًا المدرسة، وحتى الحمامات نسوها! مسجد باسم ولي من أولياء الصالحين بلا دورة مياه نظيفة، بل لا بد تمشي كم متر حتى دورة المياه. غيروا كل شيء لكن بقي الخراء على حاله. دورة المياه في مكانها القديم. شُف أنا أعرف أنك لا تصدق كلامي. طبعًا كيف تصدق وأنت ترى القمامة تملأ الميدان الذي عج بالورود؟ لكن أقسم لك وحياة أمي سنية وحياة لؤي ابن الكلب هذا، لو نطق هذا النيل لأخبرك بصلاة سيدنا حسنين عليه. بدأ نفر قليل يقفون عند الناصية الحجرية المسطحة منتظرين العبّارة، وعلى الطرف الآخر كنت ألمح السفينة وهي تمتلئ بالناس تدريجيًا. قال: ولماذا نذهب بعيدًا، وتسأل النيل وتسأل الجن الأزرق؟ اسأل جدك عبد الحميد نفسه. ألست ابن ثريا؟ وهل في غير ثريا؟! اسأله كيف أنجبها، اسأله على بركات سيدنا حسنين. اسأله كيف لف على أطباء البلد بل وراح مصر المحروسة نفسها، والناس تقول إنه حتى ذهب لبلاد بره عند الإنكليز. لكن العلم عند صاحب العلم. ما أعرفه أنه لف كعب

دائر على أطباء المعمورة لأجل إنجاب طفل واحد، والناس تتحسر، أيموت جدك ويترك هذه الإمبراطورية الضخمة لإخوته الحفراء؟ تلاقيك لا تعرف إخوته! عالم كلاب! لا تؤاخذني لكن المدينة كلها تعرف ذلك. يهود! أوسخ من اليهود. ومع ذلك ربنا مد لهم في المال والبنين! لله في خلقه شئون يا سامر أفندي. إنما أبوك، لا تؤاخذني، جدك أقصد، وجدك هو أبوك أيضًا! زمانه فرحان بك، ثريا كبرت وأنجبت الولد الذي عاش يحلم به. رجل طيب! لف الدنيا ثم عاد كسير الجناح يتمسح بالمقام، طبعًا كان دائمًا يقول هذا كلام فارغ ودجل وشعوذة! لكن سبحان الله لما خلصت أمامه أسباب الدنيا راح للولي يشفع له عند ربه! وبركات سيدنا حسنين لا تخيب ظن مؤمن يا سامر أفندي. الأزمة كلها في الإيمان يا سامر أفندي. سبحان الله! تصاريف ربك. يشاء السميع إن يعد ركعتي جدك الخاشعتين عند المقام يحضر حضرة مع أسيادنا يبتهل فيها لله، ويروح ينام مثل القتيل، فيحلم بسيدنا حسنين، يضربه بعصاه على رأسه: مالك مهموم يا عبد الحميد؟! شي الله يا سيدنا.. مدد مدد.. وهز رأسه قليلًا.. وطبعًا وصلت البشارة في مفيش، والمنطقة كلها عرفت وفرقعت الزغاريد ولما شرفت الست ثريا أمك الدنيا، أقام جدك أربعين ليلة ولا ليالي الموالد، أكل وشرب ودخان والواحد من هؤلاء يأخذ في عب جلبابه ويمشي يصب في بيته ويعود ليأخذ مرة ثانية، والمائدة لا تنتهي، تعرف يا سامر أفندي؟ يوم فرح الوالد

والوالدة أنا كنت في زفتهم! آه طبعًا. ومن غير فلوس، أي نعم هما زُفا في أوتومبيل أفرنجي لكن أهل المنطقة احتفلوا بهما على طريقتهم! آه طبعًا.. وهل هناك من ينسى فضل جدك؟ الله يرحم جدتك لم نسمع لها حسًا أبدًا.. كانت ست طيبة لا تهش ولا تنش. لكن اسمع يقولون دماغها كانت ناشفة مثل الحجر. الله مدد.. الصنارة بينها غمزت.. يا فرج الله. يا فرج الله. رفع صنارته وبدأ يسحبها للوراء جواره وهو يدمدم: يا فرج الله يا فرج الله. لكن حين انتهى إلى الخطاف وجد كيسًا بلاستيكيا وعود نباتٍ أخضر من هذه التي تملأ سطح النيل. قال بأسى: لا حول ولا قوة إلا بالله. لمحت العبّارة وهي قادمة أخيرًا وقد بدأ الجمع يزداد قليلًا في مرساناء والشيخ بجانبي يندب على أسماكه التي اختفت. يقول: أربعين سنة أصيد في هذا المكان، ودائمًا يجيء منه الخير كمنجم ذهب، لكن لا زمن مثل زمنكم هذا، زمن بلا بركة. وأخذ يبحث بيده عن الأحشاء والقطط تموء حول الكيس، ثم أمسك قطعة منها وثقبها ببراعة خبير في الخطاف، ثم رفع الصنارة بيده وهو يمسك خيطها المنتهي بالخطاف بيده الأخرى ثم ألقى بالخيط بعيدًا وهو يرفع يده، ثم عاد ووضع الصنارة بين رجليه. قال: تشرب شاي يا سامر أفندي؟ شاي معمول على جمر. شاي من الأصلي ليس مثل شاي الأيام هذه. لا تخف لست أنا من يصنعه. ثم ضحك وبان فمه خاليًا من معظم الأسنان، وأنا لا أحب وجوه العجائز. برتقال متغضن

عفن، متخددة كأن أنهارًا جرت فيها وجففها الاحتباس الحراري.
قال: طول عمري أصيد هنا والخير دائمًا وفير، تأتي في طوبة تأتي في أمشير ولا حتى مسرى تجد السمك يتلعلط على سطح الماء. والنيل عمره ما كان كما تراه الآن. عمك عطية كفيف الآن، لكن عيناه قبل أن ينطفئ نورهما رأتا الكثير يا سامر أفندي. أواه يا دنيا! كان النيل هذا تمرح فيه سفن الإنكليز، وأي سفن! بوارج ضخمة! ولا كان فيه هذا الخضار ولا رائحته بهذا الزفر. كانت الرائحة الواصلة لأنفينا تشبه عطن مرحاض قديم، فالمتعارف عليه أن الناس -التي ترغب في فض حاجتها بشدة- تنزل المنحدر الصخري وتتبول. قال: النيل العظيم صار مبولة يا سامر أفندي. عندنا في ميت العز كانت الحرمة من أولئك تخرج للفرع الصغير وتغسل فيه أوانيها وملابس أسرتها، والعيال -وأنا منهم طبعًا- كنا نتسابق مسابقات ياما في السباحة وصيد القراميط. لكن كبرت وعرفت أن خراء البهائم التي يحمونها في الترعة الصغيرة يظل ينساب حتى يصل للمدينة، وبيني وبينك أنا أحب هذه المدينة فكنت أنهرهم. آه طبعًا.. رأيت الكثير. والحنطور بحصانه رأى معي. كنا نهرّب الفدائيين أيام المظاهرات، حتى الإيطاليين الذين سجنهم الإنكليز كنا نساعدهم، آه طبعًا.. والنبي تشرب شاي؟ الولد عجوة المراكبي يصنعه على جمر. زمان أيام الحب والحبيبة كنت تجد الكورنيش مليئًا بالمشاعر وكانت الناس مؤدبة يا سامر أفندي، زمنكم هذا.. سبحان الله! لا فيه

احترام لكبير ولا صغير. كانت العبّارة في منتصف طريقها عائدة إلى مرسانا تحمل الضيوف، وسمعت نهيق حمار خلف السور وعم عطية الهرم قال: أخيرًا وصل ابن الكلب. التفتُّ للخلف لأرى عربة يجرها حمار نحيل يقودها فتى لم يكمل العاشرة على أقصى تقدير. وعليها أكوام من البلاستيك والكراتين وخلافه مما يسمى خلفه نباشو القمامة. أكمل الرجل: لا تستغرب يا سامر أفندي. هذا حال الدنيا. كنت عربجي صاحب حنطور محترم، لكن بقينا نأكل من الزبالة. حال الدنيا يا سامر أفندي. وربما نكسب ثوابًا لأننا ننظف حول المقام! نزل الفتى ومعه آخر يتبادلان سبابًا ويدخنان. جاء أكبرهما وقال: لا مؤاخذة يا باشا. لم أعلق. أخذا يساعدان عم عطية الذي قال وهو يقوم ببطء: طولنا عليك يا بني. الله يكرمك ويشفيك. أريد لو تبقى معي قليلًا لكنك متعجل. أنت صامت منذ جلست، والسكوت ليس علامة الرضا، لا! السكوت علامة القهر يا سامر أفندي، هكذا الدنيا علمتني. قلت له: تشرفنا يا عم. وبدأت أعود بحذر إلى أن وصلت إلى المرسى ووقفت وسط الجمع الذي ينتظر والعبارة ترسو وتصطدم بالعوامات وإطارات السيارات المعلقة على حد المرسى لتخفف من حدة اصطدام الرسو. انتظرنا حتى خرج الضيوف ثم وطئنا السفينة فصرنا نحن الغرباء، سمعته من بعيد وهو يطلع السلم الحجري مستندًا على الصغيرين يصدح بصوت عالٍ: سأدعو لك! علا صوت القطار المار على كوبري

الإنكليز فطغى على ضجيج المحرك وبقي الاهتزاز العنيف في أرض العبّارة كأنها ستتفتت. تلاشى عطية والقطار كذلك. وشغلتني العناكب المتدلية بخيوط واهية أصولها شباك هشة كعلاقات البشر متراكمة في سقف العبّارة الخشبي البسيط. وعلى العبّارة أن تدور دورة واسعة نسبيًا لتتحاشى العفن الأخضر الطافي والمناطق الأقل عمقًا من النهر. فتستغرق الرحلة وقتًا أطول رغم أن المسافة المستقيمة للرائي قصيرة جدًا. في مكتبة جدي رأيت صورة للنيل القديم قبل تجفيفه وإنشاء طريق المشاية السفلية هذه وكل ما عليها. الصورة من زاوية فيلا غيث وترى فيها بسهولة الماء يترقرق على أحجار الفيلا الصخرية. كل هذه المكتبة لم يبقَ منها سوى عدة مجلات باهتة صفراوية، أغلبها للمطبخ والتفصيل، وأخرى لأخبار النجوم، وحزمة صغيرة بها صور لجدي وأخبار عنه مقطوعة من جرائد وصحف بعضها لم يعد يصدر حتى. في إحدى الصور وقف جدي مصافحًا جمال عبد الناصر، وأخرى وقف فيها وخلفه صورة قديمة لمدينتنا ومكتوب: خطة توسعة المدينة تحت التنفيذ. صورة لجدي يصافح إمامًا أزهريًا ومكتوب: الدكتور عبد الحميد حسان يتبرع بقطعة أرض لوزارة الأوقاف لبناء المعهد الديني. معظم كتب المكتبة باعتها أمي بالكيلو لبائعي الروبابيكيا وتقول إنها ليست غبية فباعت منها أيضًا لمحبي الأنتيكات. "ليس لها مكان في الفيلا" تقول وهي تعبس بوجهها. استطعت إخفاء بعض منها في

غرفتي لكن ضاع الكثير. السفينة تمخر عباب الماء فتثير موجًا يطلق رذاذًا يضربه الهواء في وجوهنا. أتذكر في إحدى المجلات القديمة أني قرأت كيف أنشأوا هذا الطريق: جمعوا قمامة المدينة كلها ورصصوها فوق بعضها في طرف النيل ودعموها بصخر وأسمنت حتى صنعوا يابسة مانعة. لا عجب أنك حين تسير على طرق المدينة تجدها تموج سائلة كبحر، أو للأدق فإنها تسيل كنهر، مدينتنا السائلة العائمة على نهر من قمامة وروث وصخور باردة ونيل عظيم يطوف فيه عفن أخضر. والناس لا يملكون التوقف والشوارع السائلة هذه تجرفهم كتسونامي مخيف، فيسبحون مُطازدين من السيولة العفنة خلفهم، مطاردين فرائس وهمية آملين أنها ستجعل الأرض أسفل أقدامهم صلبة من جديد. ومتى كانت الأرض صلبة في الحقيقة؟ أو ليست صلابتها زيفًا في ذاته؟ ألم تكن مجرد جزيرة من طمي النيل جعلها الصالح أيوب ثكنة عسكرية؟ وكيف يكون الطين صلبًا؟ مدينتنا تشبهنا، خُلقت من طين حقير، سائلة مثلنا تعوم في الماء، لكنه ماء آسن آثم لا ينفك يوسوس لنا بالعوم مع التيار. هكذا إذن أنجب جدي أبي. بالتمسح في أنثار عظم وحلم مريب. ربما لم نكن أحفاد رجال بالضبط. وربما نحن أحفاد رجال أفاقين مهابيل. ألا ندفع كلنا ثمن خطيئة؟ فالابن يدفع ثمن خطيئة أبيه مرورًا بجيل واي وجيل إكس وحتى إيه؟ وهل كانت نية "إيه" سيئة حين أكل من الشجرة المحرمة؟

maktabbah.blogspot.com

لكن هكذا طريق الهبوط مفروش دائمًا بنوايا حسنة على جانبيه وأخطاء ساذجة غبية. تأملت السماء التي تمر تحتها العبّارة وظهرت باهتة بسبب الأضواء الملونة المنبعثة من القاعات والنوادي. لعنت غبائي أني لم أسأل ذلك الشيخ عن السماء. أتغيرت؟ أكان الناس يرونها مثلما أراها الآن؟ يا لحماقتي! وددت لو عرفت أهذه لعنتنا نحن أم أنها تعويذة شر أصابت الأجيال كلها. جيل زد، جيل القاع، لا مزيد من الانحطاط ممكن كما أنه لا مزيد من حروف الأبجدية. لعل جيل Z جيل النهاية أو ربما بعده يأتي A جديد، ليبدأ هبوطًا جديدًا ينتهي بـZ جديد يولد منه A جديد ليبدأ.... تخرق السفينة ظلمة الماء والليل بمحركها وأنوارها، كأن الماء والليل صديقان عزيزان. آه.. هبة، أستظل صديقتي؟ أنتظر جالسًا في مول سيتي ستارز ولم تكن الحمّى قد بدأت فكان يدهشني الاسم. سحبوا من السماء نجومها ليحشروها في مبنى بارد لأن المول مثله مثل كل المعابد يبحث عن صورة القداسة. الآن أتأمل مشهدي ذاك وأنا جالسٌ أنتظره في المقهى الفخم ذي الاسم الألماني الواقع في منتصف المول ويطل على معظمه، سامح صليب، الصديق الذي حظيت به في السنة الأولى من كلية طب الأسنان، جواري أكياس تحوي أشياءً اشتريتها من أغلى الماركات، والناس تتدفق أمواجًا على المحال بطقوس متشابهة تقريبًا فلا أملك إلا أن أراها كصلاة سرية مقدسة لعينة. يقفون أمام الزجاج فيخرجون محافظهم لتلاوة

الترانيم، يطوفون حول آلهتهم ثم يعودون إلى البيت وقد صحُّوا من عللهم. يعومون خلف سمكة زاهية تصير هي الجمال والتقدم والموضة وفور أن يمسكوها حتى تتنزل عليهم سمكة جديدة بألوان أخرى فيلفظون أشواك القديمة للمتأخرين في السباق ويطاردون الجديدة، دون إدراك لحقيقة أنها الأسماك – كلها– أسماك قرش لعينة ستنهش أذرعهم وأرجلهم ورؤوسهم النزقة. وقتها لم يكن ذلك كله يثير فكري. جاء متأخرًا كعادته وهو يسب لإدارة المول التي منعته من الدخول بشورت. طلب كأسًا من البيرة وتحدثنا عن حلمينا بترك الكلية. أنت عرفت قصتي، لكن قصته لم تكن واضحة جدًا لأرويها. أبوه تاجر قطع سيارات كبير وعضو فاعل –الآن– في حزب "الأف آح" ولديهم أكثر من محل في شارع الحُسنية. فخاخه نجحت في صيد تلك الفتاة نرمين التي يعمل أبوها أسقفًا في كنيسة يوحنا الرسول، وبالطبع أفقدها الشيء الذي تربت على صونه. قال: هذا الهراء لن أسمح له بأن يضيع حياتي. أبي طبعًا ستُطر أعماله لو أصبح أسقف الكنيسة عدوه. أنت تفهم! لكن أعليّ تضييع حياتي مع المعتوهة هذه لأني فقط ضاجعتها وأنا سكران؟ أنا لم أغتصبها كانت معي بإرادتها الحرة وكانت مخمورة مثلي فلماذا عليّ أنا تصحيح خطأ ما وهو ليس خطأ من أصله وحدث بالتراضي؟ أشاح بيده وقال: أبي يضع الصلبان في كل مكان ليذهب إليه زبائن الكنيسة، ويغدق على الكنيسة وأسقفها من الخير الكثير

كل شهر، هكذا صار محل أبي محل مقدس وسياراته مباركة طبقًا لموعظة الأسقف الأسبوعية ونصائحه، رغم أنه لم يذهب إلى الكنيسة مرة واحدة في حياته إلا لعقد صفقة. ثم يريدني أن أتزوج هذه الغبية فقط كي لا تتضرر مصالحه؟ هراء طبقًا على جثتي. كنت أعرف قصصه الكثيرة مع الفتيات وأعرف أن نرمين ليست الأولى، أتذكر حين رفض أبوه أن يتزوج من أميرة، وهي أولى الضحايا، لأنها ابنة فرّاش مدرسة ثمرة الحياة. ذهب إلى الأسقف يشكو إليه ما فعله سامح بابنته، ويطلب منه الستر وما كان من الأسقف إلا أن نهره وحمّل ابنته الخطية ووصمها بالعار. لماذا انتهت علاقتنا؟ لا أعرف بالتحديد، بعض الأمور تفضل أن تبقى سرًا. متى انتهت علاقتنا؟ كان ذلك يوم ثلاثاء. لكنه لم يكن سوى يوم الدفن ليس إلا. أما الميت فكان يحتضر لمدة احتضارًا بيننا لكننا نخفيه في أنفسنا كحال كل علاقات البشر. سامح صليب لجأ إلى أمريكا بحجة الاضطهاد العقدي وهو الآن من أشهر المدونين على الإنترنت، أبوه تبرأ منه إرضاءً لأبي نرمين، وسمعت أنه هرب ليلة زفافه ووقفت عروسه نرمين وحدها عند مذبح الكنيسة أمام أبيها الأسقف وأبيه التاجر الكبير في حادثة شهيرة عرفتها كل المدينة. من باب الفضول والحنين قرأت الكثير من كتاباته التي يحارب فيها التقاليد والعادات البالية في مجتمعنا ويطالبه بالثورة على كل تلك الجوامد ومجاراة العصر الجديد المتحرك على الدوام. لو عاد الآن -ربما- لوجد

الأسقف نفسه يباركه على فعلته الثورية بابنته وينادي بها في موعظة الأحد التي لا يحضرها سوى العجائز الكهن. اصطرمت السفينة حتى اصطدمت بعوامات مرسى المدينة الأخرى. ورغم أن المسافة تافهة لا تذكر إلا أني شعرت بالاغتراب. نزلت من العبّارة ووضعت جنيهين على طاولة يجلس عليها شاب بندبة عريضة على جبهته. لا يمد يده ليأخذ نقودًا من أحد، لكنك تمر أمامه فتفرد أمامه جنيهين فينظر لك بنظرة فجة كأنه يقول: الأفضل لك أن تحذر، هذه منطقتي! لم يكن استقبالًا حافلًا جدًا من المدينة الأخرى. مررت جوار قاعات الأفراح ورأيت الناس الواقفين ببدلاتهم ينتظرون عروسين وسمعت موسيقى الاحتفالات. وأمام القاعات كانت بافطات الأطباء تملأ الشارع: تحديد جنس المولود، ولادة بدون ألم، لعلاج العقم والضعف الجنسي، إعلان خلف إعلان خلف آخر: سلسلة لا نهائية متصلة بحبل سُري خفي تسبح في الهواء كأجنة في أرحام صناعية. ولفتني كثيرًا إعلان عن تعديل جينات الجنين الوراثية لحمايته من الأمراض والإعاقات، وملأ اللوحة صورة طفل منغولي يبتسم ببلاهة وعليه كُتب بخطٍ عريض: احم طفلك. الكمد يتملكني أكثر وتزداد حدة رجفتي حتى إني استندت قليلًا على الحائط لأتنفس. أكملت الخطى تاركًا القاعات خلفي حتى وصلت لمحطة الكهرباء الرئيسة الضخمة التي تغذي مدينتنا وكل ما حولها. أخذت أحوم حولها كالمجنون وأصرخ: أغلقوا الكهرباء يا ملاعين

يا أولاد الزواني. دعوا الناس ترى السماء. أغلقوها يا أولاد الزواني. ولم يجبني أحد. أحضرت كتلا أسمنتية وجدتها متناثرة على جانب الطريق ورصصتها فوق بعضها كي أقفز فوق السور. قلت لسيليا فيما بدا لي اهتمامًا مفتعلًا: لماذا تفعلين ذلك؟ قالت: you mean sex؟ قلت: آه يا متعلمة. قالت: شاهدت في فيلم كندي أن الشخص الذي يفقد قدراته الجنسية يتحول إلى moral being ويميل لا شعوريًا إلى الأفكار المحافظة وال stereo typing ويصبح ضد المتعة بشكل عام. لذلك الفياجرا هي أحد أهم منجزات البشرية الحديثة لأنها تحمي الأجيال الجديدة الشابة من حكمة العجزة وتمنحهم القدرة على المتعة للأبد. قلت: هل هذا كلامك أنتِ؟ أم كلام الآخرين في نادي الأفلام؟ قالت: هل كونه كلامي أو كلامهم سيغير من كونه صحيح؟ قلت: تقصدين أن العاجز جنسيًا يصير ميتًا؟ قالت: لا، بل يصبح موتًا يخشى الناس حضوره، فوجوده هادم للملذات ونذير بزوال كل متعة. قلت مدافعًا عن ذاتي: لكني لست عاجزًا. أنا فقط غير قادر على الإنجاب وثمة فرق بين الاثنين. قالت: طبعًا هناك فرق، لكن في حالتك أظنهما شيء واحد. قلت: تعرفين أني قبل ذلك كنت طبيعيًا وكنت أمارس.. يعني.. حياتي بشكل طبيعي اسألي كل زميلاتي. ثم إنه لا يليق بي الحديث عن حياتي الجنسية معكِ أنت بالذات. هزأت بضحكة وقالت: أرأيت؟ لماذا تحاسبني إذن؟ قلت: أولًا، أنا لا أحاسبك. ثانيًا، أنا

لا ألعب دورًا أخلاقيًا لعينًا كما تقولين. نعم، أنا كنت مثلك وربما أسوأ لكني رأيت السماء وعرفت، وكل ما أطلبه منكِ أن تتأمليها مرةً واحدة، فربما ترين ما رأيته. قالت: أيًا كان ما رأيته فلم تره باختيارك وهو لا يجعلك أفضل. قلت: أنا لا أريد أن أكون أفضل، أنا فقط أريدك أن تشاهدي السماء لو رأيتها فستتوقفين عن كل هذا البله ابن الزانية. قالت: ما الذي يجعلك متأكدًا هكذا؟ ألا يمكن أن تكون مخطئًا؟ أن أكون أنا على صواب وأنت على خطأ؟ أن تكون طريقتي في الاستمتاع بحياتي هي الشيء الوحيد السليم وليس تنظيراتك الرجعية هذه؟ قلت: وأين سيليا التي حدثتني عن مدينتنا وحالها وحلمت بالتغيير؟ قالت: هي نفسها أنا لكني أدركت حقيقة أن هذه المدينة غير قابلة للتغيير. ليس والمؤمنين بالتغيير يشبهون هؤلاء. الكل يبحث عن مصلحته فلأبحث أيضًا عن مصلحتي. ثم لو صلح حال هذه المدينة فلن يبقى لنا شيء، وساعتها سيادتك ستضطر للاستيقاظ مبكرًا والبحث عن عمل. قلت: أعرف ذلك. لكنه لا يؤرقني. قالت: sure طبعًا لا يؤرقك لأنك تدرك استحالة حدوث تغيير. قلت: وإذن؟ قالت: وإذن أنا أتسلى. يأتي الأحمق يحاول مغازلتي فأقول له هيا نذهب إلى بيتي فيندهش، آخذه إلى غرفتي فأضاجعه وأصرخ ليصدق أنه أقوى رجل في العالم، ثم حين ينتهي أقف وأرتدي ملابسي ببرود، يسألني مترددًا: ألم يكن الجنس جيدًا؟ فأقلب وجهي بامتعاض وأقول: لا بأس. يُصدم، يرتبك، يقول

لكن صرخاتك كانت.. أقول بسرعة كأني أشفق عليه: نعم نعم كان رائعًا.. يقول وقد انزوى: ربما لأني فوجئت بفكرة المجيء إلى بيتك وأنا أعرف أن أهلك هنا. فأقول: وماذا في ذلك؟ يتلجلج ويقوم يرتدي ملابسه ويقترب مني يقول: سنلتقي ثانية؟ فأرد: sure أكيد.. لكنه يدرك أني لا أعنيها. يلملم حاجاته ويخرج من البيت مسرعًا. وهكذا أخبر واحدًا بأن قضيبه قصير، أخبر آخر بأنه أسرع رجل قذف ضاجعته في حياتي، أهشم رجولتهم وصورتهم أمام ذواتهم وأستمتع برؤيتهم مصدومين محطمين، لكن انظر لنصف الكوب الملىء فأنا أعطيهم شيئًا يعيشون لأجله. قلت: لكني سمعتك تحدثين واحدًا عن الزواج. قالت بضحكة مجلجلة: for hells' sake brol are you stupid؟ قلت لك أتسلى! أتسلى! قلت: أهذه المتعة التي يعجز عنها أمثالي؟ قالت: في الحقيقة أحيانًا أشعر بسأم مرعب، فأظل أخاطب الجدران وأشعر أنها تسمعني فعلًا فأجلس لياليَ طويلة أستند إلى حائط غرفتي أستمع لتربيته على روحي، أحضر كل يوم فتى أضاجعه أمامكم كلكم ولا أحد يقول لي لا، لا أحد يصفعني على وجهي ويحدثني عن الشرف! ومن يجرؤ على كل حال؟ أخوك سمير أم أخوك سامي؟ أنت أدرى بشرفهما مني وبشرف أبويك كذلك. قلت: وهل كان ذلك سيمنعك عما تفعلينه؟ هزت كتفيها ورأسها باستهتار: of course not، نحن في عصر جديد، عصر الحرية، ولو ضاجعت حمارًا حتى لا يقدر أحد على

قول لا. قلت: ماذا تريدين إذن؟ قالت: أنا لا أريد شيئًا لدي كل شيء منذ وُلدت، أبوك لو طلبت منه كُليته أعطانيها، لدي حساب في البنك يصرف على مدينة كاملة ولدي سيارة فخمة وغرفة مستقلة أفعل فيها كل ما أريد، أدرس في كلية أحبها وأنجح فيها دون تعب بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف، وحين سأتخرج سأطلب من أبيك أن يدشن قناة تلفزيونية خصيصا لأجلي وأصبح أصغر إعلامية في تاريخ مدينتنا. هكذا Piece of cake.. يا للملل! صدقني إنه شيء ممل جدًا أن تحقق كل ما تريده بلا تعب، تصبح الأحلام عبثًا لا معنى له، فأنا لا أحلم بشيء، كل أحلامي يمكنني تحقيقها الآن وهنا. الآن لو مررت على مكتبة "عيش وحلاوة" ستجدها مطعمًا، اشتراها أحد أصدقاء سامي بعد إفلاسها وحولها لمطعم أمريكي، وأظن أن سامي نفسه شريك فيه. منذ اليوم الأول الذي ذهبت فيه لهذه المكتبة مع سيليا أدركت أنه مكان مزيف لعين ابن زانية. يملكها رجل أصلع بلحية شيباء مهذبة ونظارة ويرتدي قميصًا رصاصيًا وبنطلونا كحليًا ولو كان قميصه كحليًا وبنطلونه رصاصيًا لصار أكثر أناقة. عرفتني عليه سيليا بأنه الأستاذ شريف صاحب المكتبة، قالت: الأستاذ شريف ركّب كل شيء هنا بنفسه، حتى الدهان. أومأت برأسي مجاملًا. قبل أن تدخل تنفرك رائحة الدخان على بسطة السلم. فور الدخول من الباب الزجاجي يصدمك التكييف ببرودته، واللون البني بقِدمه خاصة مع الأضواء البرتقالية الداكنة، على

اليمين تجد بيانو ضخم وأمامه كرسي قصير، أرفف صغيرة مثبتة على الجدران عليها كتب باللغة الإنجليزية، وفي المنتصف طاولة مستديرة عليها كتب مرتبة بشكل هرمي جذاب ومكتوب بجوارها على بافطة صغيرة: "صدر حديثًا" باللغتين العربية والإنجليزية. وإلى اليسار قليلًا توجد أرفف متوازية مرصوص عليها كتب عربية عديدة ومقسمة تبعًا للموضوع أدب فلسفة تاريخ... المكان معبق برائحة عطرية مقززة، وفي كل ناحية بافطة ممنوع التدخين لذا يملأ الدخان بسطة السلم. الأرض خشبية لكنه ليس خشبًا حقيقيًا وإنما فقط يعطيك انطباعًا بذلك، وعلى أقصى اليمين جدار زجاجي يُطل على الشارع الجانبي الذي يربط المشاية السفلية بالعلوية. الحيز كله يشبه غرفة عتيقة اشتروها من حاوية قمامة تخص جدة عجوز. قلت لسيليا: مكان صغير. قالت بحماس: أنتَ لم ترَ المرسم بعد. ثم جذبتني من يدي ودلفنا خلف ستارة لعينة حمراء على الجانب الأيسر حسبتها تغطي حمامًا. قلت: مغارة علي بابا. قالت: انتظر حتى ترى. بالفعل على يساري وجدت بابًا صغيرًا مكتوب عليه بالإنجليزية دبليو سي، وعلى يميني وجدت مساحة صغيرة بها سخان كهربائي صغير وعدة كنكات مخصصة للقهوة وبضعة أكياس بُن وكيس سكر. قالت: القهوة هنا كما تحبها. لم أرد ووصلنا لساحة واسعة نسبيًا مقارنة بالغرفة الأولى وبها مرسم صغير لعين وعدة قلل فخارية بدا أنها لم تجف بعد، وفي كل مكان عُلقت اللوحات.

قالت: أستاذ شريف رسام، درس الرسم في أمريكا وجاء هنا ليستقر أخيرًا وينشئ مشروعه الثقافي الذي حلم به من زمن. تأملت اللوحات فوجدتها كلها لأناس عرايا بأوضاع مختلفة مُبهمة. اتجهتُ إلى لوحة غير مكتملة تمثل أنثى عارية: أرأيت لوحتي؟ قلت: جميلة. قالت: كذاب! أنا لا زلت أتعلم على كل حال. قلت: ومن تلك الفتاة التي تقف عارية لترسميها؟ قالت: سارة ابنة أستاذ شريف. قلت: وهل هو أستاذ شريف هذا الذي أردت أن تعرفيني عليه؟ دعكِ منه وعرفيني بابنته! قالت مبتسمة: لا ليس هو، تعال. ثم فتحت بابًا لعينًا مُخبأً في الجدار كمدخل لقبو سري، قلت: هل سأجد هتلر مختبئًا في الأسفل؟ أم أنكم تخفون اليهود الهاربين هنا؟ أوه لا ربما أجد تنظيمًا سريًا لطائفة مجنونة وتريدون ذبحي قربانًا للشيطان! وأنا الذي ظننتك أختي. قالت وهي تضحك: shut up it's not a comic story من التي تحبها. ابتسمتُ ونزلت وراءها على سُلَّمٍ خشبي حتى وصلنا لساحة أوسع بكثير مقسمة لمسرح صغير منصوب أمامه عدة كراسي تجاوره غرفة لم أرها، وفي النهاية غرفة بباب أسود مبطن لكتم الصوت، اتجهنا ناحيتها ودخلنا فرأيت بالداخل طبولًا كثيرة شرقية وغربية وجيتار كهربائي وآخر أسباني وكمان صغير وعود. وفي المنتصف ميكروفون موصل بجهاز مكساج وأجهزة أخرى أظنها تخص مهندسي الصوت. على الطبول الغربية جلس عمرو الشوبجي يرتدي تيشرتًا وشورتًا

حكيت لك عنهما من قبل وسماعات سوداء لا تتبينها من شعره الكثيف تخفي أذنيه، أشار لسيليا محييًا ثم طلب منها الانتظار بيده وأكمل عزفه. مالت سيليا على أذني تسألني إن كنت منزعجًا فأشرت بيدي لا، ووقفت أسمع عزفه المنفرد على الدرامز ووجدته لا بأس به. عرفتني به سيليا بعدما انتهى وعرفت أنه عضو في فريق موسيقي شاب يسعى لإضافة موسيقى الروك والميتال إلى المكتبة العربية. عرفت أيضًا أنه ابن الدكتور عاصم الشويحي رئيس قسم الأورام في كلية الطب بجامعة مدينتنا ولم أكن أعرف أني بعدها بمدة ليست طويلة سأعرف الأورام وأباه الخبيثين. وقتها لم يكن قد أصابني المرض بعد وأظن أني كنت في السنة الثالثة في سياسة واقتصاد، وسيليا ربما وقتها لم تكد تتجاوز الثامنة عشر بشهور قليلة. قال إنه يدرس الطب، ثم قال: أبي يريدني التخصص في الأورام لكني أحب النفسية. وليس على المرء أن يطيع أباه دائمًا right؟ ونظر لسيليا. ونظرات الوله الحمقاء بنت الزانية في عينيها لم تخفَ عليَّ. قال بحماس: ليس الرجل من قال ذاك أبي لكن الرجل من قال هذا أنا. قلت مصححًا: كن ابن من شئت واكتسب أدبًا يغنيك محموده عن النسب.. إن الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبي.. قال: أعرف أعرف قاله الحجّاج ولهذا قصة فحين تولى إمارة العراق خـ... قاطعته: قاله علي ابن أبي طالب وليس الحجّاج ثم إن الحجّاج وُلّيَ على البصرة وليس على العراق كلها.

أخذ الفتى فقالت سيليا ضاحكة: احذر أخي فهو قارئ من الطراز الأول. نعم هذا حقيقي فأنا لا أفهم شيئًا في هذه الحياة مثلما أفهم الكتب، وبسهولة أستطيع تمييز القارئ الحقيقي من ابن الزانية. قال مهادنًا: إذن عليك أن تشرفنا في نادي الكتاب يوم الأربعاء القادم، سنناقش كتاب أولاد حارتنا لمولانا نجيب محفوظ. قلت: قرأته. قال: عظيم يسعدنا حضورك. قالت سيليا بحماس: ويمكن أن تحضر أيضًا نادي السينما يوم الأحد سيعرضون فيلمًا رائعًا عن النازية. وقف بهدوء ويده اليسرى تمسك الباريه، فيظهر شعره المصفف بعناية أسفله وجه حليق باستثناء شارب لعين كما يليق بضابط تحقيق ابن زانية. قال: ما الذي تحسب نفسك تفعله؟ قلت: ما أفعله لا يعني أحدًا. قال: معك حق! لكنك تشاركني نفس الاسم وهذا سيجعله يعنيني شئت أم أبيت يا ابن الكلب. أجب عن أسئلتي. قلت وأنا أرتجف غضبًا: لن أجيب على سؤال ابن زانية. قال: تقفز فوق سور محطة الكهرباء؟ ماذا تظن أنك ستجد هناك؟ لحسن حظك أن الضابط المسئول دفعني ولما عرف من أنت أخبرني. كانت كدمة زرقاء تحيط بعيني ومذاق دم لاسع لعين ينبعث من شفتي المتورمتين. قلت: آه دفعتك! الآن فهمت الكرم الشديد في واجب الضيافة. وتحسست فكي متألمًا. قال بابتسامة ساخرة: الواجب كان يقتلوك ويدفنوك مكانك أو على الأقل يقطعوا لسانك. حاولت الرد لكنه أشار بيده على شفتيه وتصنع إغلاقهما

وقال: لا أريد سماع صوتك. كل يوم فضيحة من عائلتكم الوسخة هذه. لن تهدأوا حتى تدمروا مستقبلي وتنقلوني لموسيقى الشرطة. قلت: بالطبع سيعطونك الطبلة. قال غاضبًا: اسمع! اليوم أنت خرجتَ بفضلي وحدي ولولاي لقضيت بقية عمرك القصير في مكان لا يعرفه الجن الأزرق، لكني أقسم لك، غلطتك القادمة لن يكون جزاؤها سوى أن أقتلك بنفسي، سأقتلكم واحدًا واحدًا ولن يرمش لي جفن. غلطة واحدة فقط، كأن ترمي منديلًا في الشارع، كأن تشخر وأنت نائم، كأن تدخل الحمام ولا تغسل يدك القذرة، غلطة تافهة صغيرة، أتفه منك شخصيًا، ومن عائلتك كلها ولن تجد نفسك سوى في قبر أسود لا يعرفه أحد. هل تفهم؟! قلت وازداد ارتجافي: ولما تقتلني من يحضر لأبيك الأحفاد؟ احمر وجهه حتى كاد ينفجر ثم انقض عليَّ فجأة وصفعني على وجهي وهو يقول: يا ابن الكلب يا ابن الكلب. حاولت التفلت لكن الصفعات انهالت على وجهي وتهاويت على الأرض فأخذ يركلني في صدري وبطني ويدعس وجهي وأنا أحاول الالتفاف حول نفسي كجنين لعين ابن زانية، ولم أقدر حتى على التأوه، وهو لا يزال يصرخ: مت مت يا ابن الكلب، مت يا صرصار يا حشرة، موتوا كلكم، موتوا. وسمعت صوت أبو رضا: الله الله صل على النبي يا سعادة الباشا، واحتضن سامي ليدفعه بعيدًا عني وصرخ سامي: اوعى من وشي يا حيوان يا ابن الكلب. قال أبو رضا: اهدأ يا باشا ستضيع نفسك اهدأ. أخوك مريض، ستقتله.

أخذ يدفع "أبو رضا" بيديه وهو يبتعد ويسب ثم غادر المكان. أمسكني أبو رضا وكنت أرتجف غضبًا، رفعني ونادى: يا أهل الله يا اللي هنا. ولم يرد أحد. قال: يا حول الله يا رب ثم حملني على كتفه وقال: ما هذه المصائب يا جدعان.. يا أستاذ سامر.. يا سامر بك.. صحصح معي.. قال: خالتك أم رضا في البيت ولا أحد هنا، أخاف أتركك وحيدًا يجري لك أمر ولا شيء، ولا سامي باشا يكون ناوي على نية غدر، دعنا نذهب لأجزخانة وتأتي معي البيت ثم أعيدك هنا تكون ارتحت والنفوس صفت. سامي لا أظنه يعرف أن له أختًا من أساسه، يقول: طالما تضاجعهم في غرفة مغلقة فلتذهب إلى الجحيم! بالطبع لا يهمه إلا ما يحدث في الشارع وما يُكتب في الجرائد وما قد يثير حفيظة سيادة اللواء أسامة محي الدين فيصب عليه تقريعًا شديدًا. وطالما سيادة اللواء لا يتكلم عن الأمر فهو بلا قيمة وغير مهم وليذهب إلى الجحيم. أما أبي فلعله بتدليلها يكفر عن ذنب يشعر به تجاهها، أو ربما لكونها فتاة جاءته على كبر. لا يمكنك الجزم، أيفعل ذلك لأنه يحبها فعلًا أم لأنه يستسهل، فالتدليل في حقيقة الأمر هو أسهل أنواع التربية. تربيح دماغ! سمير بعدما صارت تحضر الشباب إلى البيت وتضاجعهم، صاحبها أكثر من أي وقت مضى، يحضر لها الفتيان ليضاجعوها وتحضر له هي الفتيات ليضاجعهم، يقول لي: أختك هذه أحسن واحدة في بيتكم! And her taste.. ثم ضم أصابعه اليمنى وقبلها وفردها علامة

الاستحسان. وأنا قد حاولت معها قبلًا وقلت: سيليا إياكِ والنزول لهذا القبو وحدك مع عمرو هذا. قالت عابسة: أنا إنسانة كبيرة ولست بحاجة لأحد يملي عليَّ تصرفاتي. قلت: أنا لا أملي عليكِ شيئًا أنا أنبهك كأخيك. قالت غاضبة: وماذا يعني كونك أخي؟ أيعطيك ذلك حق التحكم في؟ نحن في الألفية الجديدة والمرأة مثلها مثل الرجل ومن حق المرأة أن... قلت رافعًا يدي: هيه على مهلك! لم أقل أي شيء سوى تحذير، عمرو هذا غير مريح! هزت رأسها وكتفيها باستهتار: أبوه صاحب بابي! لا، إذا كان أبوه صاحب بابي إذن كل شيء على ما يرام. طبعًا! أليس أبوه صاحب بابي؟ كانت مكتبة "عيش وحلاوة" داعمة لحزب "الأف أح" الليبرالي التقدمي ابن الزانية، بل إن مناظرات بين الليبرالية والاشتراكية قامت فيه وحضرها كبار رجالات الحزبين من ضمنهم أبي طبعًا. السيد شريف صاحب المكتبة ليبرالي لعين وقد أوضح ذلك كثيرًا في نادي الكتاب، جلست وسطهم بناءً على إصرار سيليا، أنا اللعين الذي لا أقدر على قول لا. ودار نقاش حول فكرة تمثيل الإله والأنبياء في نص، ثم احتدم الجدال حول حرية التعبير وسقف الممنوعات والرقابة، وأخيرًا هل قتل العلم الإله؟ ويبدو أن الجميع موافق على أن العلم حل محل الإله، وأنه لا مناص من الاعتراف بذلك. ثم تحدثوا عن الحريات، وحين نتحدث عن الحريات فلا يلوك أولاد الزواني سوى علكة الحق في الجنس والحق في العري، فالأولى تتبع الثانية والثانية

تنبثق من الأولى. ومدينتنا لم تعد تعرف موقعها بالضبط على خريطة العالم. يحكي أستاذ شريف أنه في أمريكا كان عاديًا أن تعود ابنته إلى البيت مع شاب وتخبره أنه her boy friend وتدخل معه غرفتها وتضاجعه وهو لا يقدر على قول لا. يقول: تليفون واحد للشرطة لو منعتها وأدخل السجن عشر سنوات. أستاذ شريف نفسه متزوج من آنا أمريكية ملحدة، قال: موضوع الدين موضوع اختياري بحت، عليك أن تزرع في ولدك منظومته الأخلاقية وحين يكبر يستطيع الاطلاع على الأديان والقرار بنفسه. قال: ولا أقول لكم أفكارًا مطلقة أنا بالفعل فعلت ذلك مع سارة ابنتي، وقد تم باتفاقي أنا وزوجتي فكل واحد يحترم معتقدات الآخر ولا يفرضها على أحد. قال أيضًا: مثلها مثل الحرية الجنسية، فالإنسان عليه اكتشاف ذاته بنفسه، فلا يمكنك أن تقول لطفل أنه ولد فعليه حب البنات أو العكس، فالهوية الجندرية هوية اختيارية وليست فرضًا على الإنسان، وجسد الإنسان ملكه وحده. من حق كل إنسان أن يتحول لشيء آخر مغاير طالما يجد نفسه فيه ويحقق فيه جلسانيته. ونظرات الانبهار تقفز من عيني سيليا المراهقة البلهاء، إنه صديق لبابي إذن كل شيء على ما يرام! ذهبت أيضا لنادي السينما إرضاءً لها، رغم أني كرهت هذا المكان وناسه. نزلنا إلى القبو اللعين ووجدت المسرح قد نزل فوقه لوحة بيضاء طويلة ليعرض عليها الفيلم مُكبرًا. اتخذت مجلسي ولم يكن المكان مزدحمًا على كل حال.

جلست سيليا جواري وأخرجت هاتفها ونظرت فيه، قلت: لا تتعجلي سيبدأ الفيلم السخيف قريبا. قالت: أنت السخيف، I'm waiting for عمرو. تأملتها قليلًا تضع طلاءً أحمر فوق شفتيها وكحلًا خفيفا فوق عينيها ولا شيء آخر فهي جميلة بما يكفي. صغيرة لكن جسدها يكبرها بعدة سنوات. ابتدأ الفيلم وجلست هي جواري تتململ وترفع رأسها وتتلفت ثم تنظر في هاتفها. أخيرًا وصل السيد عمرو ابن الزانية في منتصف الفيلم تقريبًا، لوح بيده ناحية سيليا فقامت ومالت على أذني: سأذهب معه إلى الأستوديو ليسمعني أغنيته الجديدة. قلت: والفيلم؟ قالت: لقد رأيته من قبل. قلت: هل أنتما وحدكما؟ قالت متلجلجة: no we are not. All the band is there، ثم أنا حرة أفعل ما أريد. قلت: طيب أنا هنا. قامت ودخلت معه الأستوديو ولم أر أحدًا غيرهما يدخل، وكنت على وشك القيام لكن وجدت شريف الأمريكاني يأتي ويجلس جواري ويضع يده على فخذي لأجلس قائلًا: اطمئن. لا داعي لأن تقوم. وأنا لعين هزيل لا أقول لا. وطالما هو ابن زانية صاحب بابي فكل شيء على ما يرام. ظلت يده على فخذي طول الفيلم رغم انتهاء مناسبة وضعها وحاولت التزحزح قليلًا كي يرفعها لكنه بقي كما هو بل وشد مسكته كلما شعر بحركتي كأنما يريد أن يجلسني هنا إلى الأبد. انتهى الفيلم ولما تخرج سيليا بعد، هل يُسمعها ألبومًا كاملًا؟ قال شريف وهو يمسك برسغ يدي: قالت سيليا إنك

تحب القهوة البلدي، القهوة الأصلية المعمولة على السبرتاية. ثم جذبني وراءه: تعالى نعمل لنا فنجانين ونتناقش في الفيلم. عندي لك بن كولومبي معتبر اعتدت شربه في أمريكا، لم أصدق حين رأيته يُباع هنا. رقينا السلم حتى وصلنا إلى القن الصغير المعد كبوفيه، وهو يكمل: تطورت المدينة كثيرًا عما تركتها، ظننت أني حين سآتي سأكون كنبي بأفكار جديدة، لكني وجدت المدينة مستعدة تمامًا لهذه الأفكار. كل أصدقائي قالوا لي مشروع ثقافي في مدينتنا؟ are you crazy؟ أحسن لك افتح مطعم أو كافيه أو ماركة ملابس. لكني وجدت أن مدينتنا ينقصها مشروع ثقافي حقيقي يهيئ شبابها ويحتويهم. ألا ترى ذلك؟ كان واقفًا أمامي بظهره يعد القهوة فالتفت بكل جسده والمكان ضيق لعين فكدنا نلتصق وباتت أنفاسه في وجهي قال مقلدًا أحد الفلاسفة: لماذا لا تتكلم؟ تكلم حتى أراك. ثم مد يده وربت على كتفي قائلًا: لا تخف. وشعرت بلمسة خفيفة على جهازي وقرصة فجفلت مفزوعًا وابتعدت حتى خرجت من القن إلى الممر، عاد بجسده للقهوة التي بدأت تفور وقال كأن شيئًا لم يكن: عمل القهوة فن، لا يدركه سوى مرهفي الحس. وبدأ بصب القهوة وقبل أن يلف ناحيتي ليناولني فنجاني هرولت على السلم ووقفت أمام الأستوديو وأخذت أضرب عليه بيدي وأنادي: سيليا.. يا سيليا.. أركل الباب وأدق عليه بكل ما أملك من قوة. لكني ضعيف لعين كحشرة حقيرة. نزل ورائي حاملًا القهوة وقال:

ماذا بك؟ القهوة! قلت: لا أريد شيئًا، أين أختي؟ سيليا.. يا سيليا.. اقترب مني فجفلت وأمسكت كرسيًا أحمي به نفسي، فأشار بيده متخوفا وقد انقلبت فوقه القهوة: اهدأ اهدأ لن تسمعك هكذا.. calm down man ثم ضغط على زر جانبي في الحائط فاشتغل ما يشبه ديكتافونًا لعينًا، قال: سيليا لو سمحت تعالي... لم يحدث شيء فرفعت الكرسي مهددًا فضغط على الزر مرة أخرى فصرخت بعلو صوتي: سيليا.. يا سيليا.. انفتح الباب ووجدت هندامها مبعثرًا والطلاء على شفتيها ممطوط لوجنتها وآثاره باقية على رقبة ابن الزانية. أمسكتها من يدها بعنف وجذبتها ورائي وقلت: هيا نذهب إلى المنزل! قال عمرو وهو يعدل نظارته على وجهه: ماذا حدث؟ قال شريف: لا أفهم لقد كنا نتحدث كصديقين ثم وجدته يجن فجأة. قلت: اخرس يا ابن الكلب يا نجس. سحبت سيليا يدها من يدي بعنف وقالت: سامر ماذا تفعل؟ you are embarrassing me. قلت: اخرسي وتعالي هنا. قالت: لن أخرس! Are you out of your mind؟ قلت مشيرًا بإصبعي وصوتي يرتجف غضبًا: أنتِ لا تفهمين هذا الـ.. الـ... قالت: الـ ماذا؟ هؤلاء هم أصدقائي ولن أسمح لك! ثم أخفضت الكرسي من يدي وقالت: الأفضل أن تغادر الآن. قلت: لن أغادر دونك. قالت: I'm not your baby. ثم دفعني من كتفي نحو السلم فرقيته وغادرت. هل أخبرتك أن شيمة أهل مدينتنا التناحة في عبور الطريق؟ أتحداك أن تجد

إنسانًا في العالم يعبر الطريق ببطء وسماجة متعمدًا هز ردفيه أمام السائقين مثل أهل مدينتنا. ولو أطلقت بوقك سينظر لك شذرًا غاضبًا ويضرب بيده على مقدمة سيارتك: جرى إيه يا عم منعديش؟! الطريق للمشاة! أمك من أحضرتها لك! ولن تسلم أبدًا من لسانهم أو أيديهم. وأظن أن الأمر له علاقة بالجينات، فأنت حين تجلس خلف المقود تسب الأديان للعابرين وحين تترجل فإنك تعبر بنفس التناحة وتسب الأديان للسائقين. مدينة السباب، مدينة أصوات. لذا لم يكن مدهشًا كم السباب الذي سبه أبو رضا للعابرين. وأبو رضا سائقنا منذ طفولتي. ورغم ذلك لم أذهب إلى بيته قط. وصلنا إلى شارع الجلاء وهو لا يتوقف عن الكلام لكني كنت أدور حول أفلاك وهمية لعينة ولم أتبين شيئًا مما قاله. ترك محل قدورة على يمينه لكن رائحة السمك عبقت السيارة، ودار إلى الشارع الجانبي ثم نزل وأزاح جنزيرًا ضخمًا مغلقا بعدة أقفال، ثم عاد وركب السيارة وركنها مكان الجنزير. قال: حصل لنا الشرف يا سامر بك.. تفضل تفضل. وظل يكيل المديح والتشرف بحضوري ونحن نرقى السلم حتى وصلنا لشقة بابها خشبي قديم. دلف إلى الشقة وهو يقول: يا أهل الله يا ساتر.. ثم صوت جلبة قبل أن يعود إليّ ويشير بالدخول: لماذا تقف بالخارج؟ البيت بيتك تفضل تفضل.. زغردت أم رضا وقالت: نحن زارنا النبي. ثم لفحتِ الكدمات والدم الذي ينزف مني والعرج الخفيف الذي أسير به فولولت

فزجرها زوجها بعنف وقال غاضبًا: حضري الحمام للبك يا ولية بحرق شكلك. قالت أم رضا: جهزت لك غيارين من عند الولد رضا ابني ليسا مقامك لكن على ما أغسلك ملابسك. تحممت في حمام ضيق جدًا، حتى إنه لا يسع سوى قاعدة رائحتها تثير الغثيان، وعمود يشبه ميزابًا لعينًا يُسقط الماء فوق رأسي. وخلف الباب عدة مسامير سوداء مدقوقة بلا انتظام عُلقت فوقها المنشفة والملابس وقد أصابها رذاذ المياه حتما. حين خرجت وجدت طفلًا صغيرًا وشابًا شعره كثيف المنتصف محلوق الجانبين وسيدة شابة بأنف كبير نسبيًا ونحيلة الجسد وترتدي حجابًا عصريًا لا يغطي الرقبة. قالت أم رضا: دقائق والعشاء يكون جاهز، نحن زارنا النبي! جلس أبو رضا على كنبة قديمة ظهرها الحائط المطلي طلاءً أخضر مصفر بلون مقزز يشبه الكاسترد. يرتدي جلبابه البيج ويلتفع كوفية بيضاء معترًا بأصله الريفي. وجلست أنا بتشيرت أحمر وبنطلون جينز واسعين مهلهلين. قال معرفًا: هذه سلمى زوجة رضا ابني، زمانه في الطريق ربنا يسوقه. ثم نادى: خد هنا يا ابن الكلب. فجرى إليه الطفل الصغير فقال ضاحكًا: والمفعوص هذا أول الأحفاد. وقال بلهجة ذات معنى: العقبى يخاووه. ونظر بطرف عينه لسلمى. ثم قال: وهذا النطع هو آخر العنقود، بسلامته يريد أن يصبح لاعب كرة في الدوري الإنكليزي، عقله والنبي يا سامر بك، بعد ما صرفت عليه دم قلبي يريد ترك المدرسة! فهمه وحياة أبيك أن الشهادة

مهمة. ثم شعر بأنه أخطأ حين قال لي أنا ذلك، أنا الذي لم أتم شهادة واحدة لعينة، فقال بسرعة: أنا أحضرت لك بعض الأدوية والمكركروم والذي منه.. أمسكت سلمى كيس الدواء وأخرجت قطنًا ووضعت فوقه بعض المطهر ثم بدأت مسح وجهي، فتأوهت قليلًا فابتسمت وقالت: هل صدمك قطار؟ قال أبو رضا حاسمًا: شيطان.. شيطان.. الله يلعنه. سكتت سلمى ومارست مهمتها في صمت وجاءت أم رضا ووضعت صينية فيها أرزًا ونصف دجاجة وبعض الخضار وطبق شوربة، قالت: حاجة بسيطة من خيركم. قال أبو رضا: بسم الله يا أستاذ سامر أنت لست ضيفًا. جاء الطفل الصغير وبدأ يضع إصبعه في الشوربة ثم يشد جزءً من الدجاج فقالت سلمى: علي عيب! احترم نفسك. قلت: طفل صغير لا مشكلة. قال أبو رضا ناهرًا: خذوا ابن الكلب هذا من هنا. فقامت سلمى وأخذته واختفت هي وأم رضا، قال الفتى: بابا أنا نازل. قال أبو رضا: إلى أين العزم إن شاء الله يا سيد أمك؟ قال الولد: إلى الدرس. أومأ أبوه وقال: على الله يجي بفائدة. نزل الولد وبقينا معًا قال: مد يدك يا أستاذ سامر، نحن أهل يا رجل. بالك أنت الولد ابني الصايع هذا يقول إنه ذاهب للدرس الخصوصي وابن الكلب ذاهب للعب الكرة، نحن كنا شباب أيضًا ونعرف هذه الأمور. ابن الكلب يظنني أضرب الأرض بالفأس فتخرج النقود. وأنا يا عزيزي أكره حين يتحدث الآباء عن أبنائهم كأنهم هم لم يُوجدوا قط وكأن أبناءهم هم كل

العالم. شيء مقزز أن تُنهي حياتك باختيارك لأجل كائن آخر حتى لو كان حيوانًا منويًا لعينًا ابن زانية من صلبك. قال: التعليم فسد يا أستاذ سامر، وهيبة المدرس راحت، أنا أتذكر زمان حين كنت تلميذًا: الأستاذ من هؤلاء يمر بخرزانة طويلة بنت كلب صوتها فقط في الهواء يجعلنا نعملها على روحنا ونحن واقفون، حاكم برضه القرية غير المدينة يا سامر بك، يعني الواحد في القرية يذهب لأبيه يخبره أن الأستاذ ضربه اليوم في المدرسة، فيروح الأب معه إلى المدرسة ويرفه علقة أمام المدرسين كلهم ويقول: يا أستاذ كسر وأنا أجبس. كانت التربية قبل التعليم يا أستاذ. اسأل الوالد الدكتور ربنا يبارك لنا في عمره، ما هو من قريتنا وعارف. مد يدك يا سامر بك ولا قرفان منا. مددت يدي وأكلت ملعقة بالكاد مجاملا. دخل حفيده يركض وأوقع عدة أشياء فجذبه واحتضنه وأجلسه على فخذه وقال: الولد المفعوص هذا، سبحان الله يا أستاذ، معزته لا تُوصف، لو قال لي أحد إني سأحبه هذا الحب لما صدقته أبدًا. دخلناه مدارس الدلتا بس مش العادية لا الأمريكاني لأجل يتعلم تعليمًا نظيفًا ويطلع حاجة. البركة في الوالد بتليفون واحد الولد ملفه دخل المدرسة، أي نعم المصاريف غالية جدًا بإشي وشويات، لكن ليست خسارة فيه. وقبله على رأسه ثم قال لي: ليست أكلتك يا أستاذ، لا تحب الكوسة؟ نجيب حاجة ثانية؟ قلت: لا شكرًا أنت عارف المرض. قال: طبعًا طبعًا على راحتك.. يبقى نشرب

شاي. وقبّل حفيده مرة أخرى وقال: اذهب لستك قل لها تعلق على الشاي. تعثر الولد فنهره ثم قال ضاحكًا: لو كسر البيت كله لن أغضب منه، لعلمك أنا أنهره فقط خوفًا عليه، على الله يفلح ولا يصبح مثل أبيه. رائح على مصر قال إيه يريد أن يصبح ممثلًا! بعد ما تخرج من كلية التجارة بتقدير جيد يريد تضييع مستقبله، الله يخرب بيت النت وسنينه، قاعد يا أستاذ يعمل فيديوهات على الفيسنوك ويقول لي: أنا مشهور يا بابا ولي جمهور وغدًا يدخل لي دخل ضخم من الإعلانات. وأدينا قاعدين، لكن لو الذي يتكلم أهبل يبقى المستمع عاقل! ولا إيه يا أستاذ؟ ومن يكسب فلوس من شغل الأراجوزات والعفاريت هذا؟ كان أحسن يتطوع في الجيش مثل أخيه. هي البنت سلمى هذه هي التي ملأت دماغه بهذا الشخاخ، من البداية أصلًا لم أوافق عليها وربنا العالم، قلت له الدكتور بتليفون واحد يشغلك في بنك ولا شركة محترمة، ولا حتى شركة سمير بك، لكن ماذا تقول في نشفان الدماغ؟ والصراحة أنتم عائلة كُمَّل ولا تقصرون مع الواحد. لولاكش بس الشيطان الذي دخل ما بينكم. ثم أطرق قليلًا، وقال: الغِنى هذا نقمة. لا يوجد أحسن من راحة البال. ثم أشار لكوب الشاي: شكلك ملكش في الشاي! أنا عارف جو البيت كتمة، تلاقيك عايز تفك عن نفسك، ما رأيك ننزل نروح المقهى تغير جو ونشرب لنا فنجانين قهوة ونشد لنا حجرين معسل يعدلا الدماغ؟ وبالطبع لم أقل لا. أمام مقهى

أندريا العتيق مرت سيارة سامي الرياضية بسرعة جنونية كسيارة سباق، وأحدثت إطاراتها صريرًا مزعجًا لفت كل الأنظار. تبادلت وسيليا النظرات فالسيارة البي إم الحمراء ذات الزجاج الفاميه والتي لا تحمل رقمًا كما هو مفترض، نعرفها جيدًا ونعرف سائقها الأرعن الذي يعتبر الشارع ملك أبيه، والذي لتوه علق نجمة على كتفه. لم نعلق حين سب أحد أصدقاء عمرو الاشتراكيين سائق السيارة، وقال عمرو وهو يهز رأسه: هل تتخيلون أن ذلك يحدث بعد ثورة؟ وانهمكوا في حوارات يتخيلون التغيير الذي سيحدثه تطبيق الاشتراكية على المدينة. المجد للبروليتاريا يقولون. سيليا خاصمتني بعد موقفي مع أصدقائها وأصدقاء بابي. نعم يا عزيزي كما سمعت! قلت لك هو عصر جديد لعين ابن زانية. حاولت منع نفسي عن محادثتها أنا أيضًا، لكني شعرت أنها تدين لي على الأقل باعتذار. قلت: ابتعدي عن هؤلاء الناس سيفسدون أفكارك. قالت: لو تغضبك أفكارهم يمكنك عرض أفكارك وترى. لكن ترفع كرسيًا وتتصنع مشاجرة؟ هل تحسب نفسك سمير أم سامي؟ لا أنت هذا ولا ذاك ولا تستطيع حتى قتل نملة. قلت: أنا أخوك ورأيتك تخرجين من غرفة مع شاب مبعثرة الملابس! قالت ساخرة: and now what؟ هل ستقول لبابا وماما؟ اذهب تفضل. قلت: لو كنت تماديت معه إلى حد أن... أنت تعرفين ما أقصد، فأخبريني على الأقل وسنتدبر الأمر. قالت غاضبة: وما دخلك أنت؟ my matter is my matter.

وما أفعله يخصني وحدي ومنذ متى تهتمون لأمري، آه طبعا.. before I was just a baby but now.. ثم قلعت النشيرت الذي ترتديه لتقف بصدرٍ عارٍ بض ممتلئ وأمسكت بثدييها غاضبة: now I'm a woman.. وهذا ما يجعلكم خائفين. قبل أن يغادر لدراسة الأورام في أمريكا فجأة كان عمرو يدرس الطب في جامعة مدينتنا، لكن ليس الطب العادي، بل طب جديد، اسمه طب ليفربول، وهي آخر التقليعات التي ابتكرها أبي "لتحديث التعليم". ومميزاته أن شهادتك تكون بإشراف كامل من جامعة ليفربول العريقة. شيء ما يتوسط الذين لا يقدرون على التعليم المستورد الشوكولا ذي الثلاثة حروف، ولا يقبلون التعليم الحكومي. يقول عمرو: أبي يستطيع طبعًا أن يدخلني أي جامعة أختارها لكني فضلت ذلك القسم. كان صادقًا فمستشفى أبيه على النيل والتي تعالجت فيها فيما بعد تبعد عنا بخطوات قليلة. قلت: الغريب أن تتعلم في قسم خاص مستورد يكلفك كل سنة مبلغًا وقدره، ثم تتبنى الاشتراكية. قال: بالعكس هذا سبب أدعى، فأنا أعرف أن ذلك ليس عدلًا. قلت: لكنك تكاد تقيم في مكتبة "عيش وحلاوة" الداعمة لليبرالية ورأس المال فكيف يتسق هذا وذاك؟ قال: ليس من الحكمة أن ترفض الفرص وأنت ضعيف، أنا أستغل أبي لأتعلم ثم أعالج الناس بالمجان، وأستغل المكتبة لأنشر أفكاري من ساحة أوسع، لكنك كما ترى، أنا والرفاق نلتقي هنا دائمًا. آه يا أولاد الزواني. الرفيق عمرو

خروتشوف! أدعياء مزيفون أولاد زواني، يرتدون أزياء باهظة الأثمان، ويدخنون سيجارة مارلبورو، ويمسكون هواتف أيفون آخر إصدار، وينادون بالاشتراكية. ينتقون لمحفوظ أولاد حارتنا مستجلبين تعاطفًا زائفًا ويقولون مولانا أكد أن العلم قتل الإله. يتباكون على هولوكوست لعين في فيلم تافه ابن زانية، ويتناسون هولوكوست يومي يحدث أمام عيونهم اللعينة وضحايا الأمس الذين صاروا نازية اليوم. مزيفون أنجاس أولاد زواني. وسيليا تكاد تتضاءل أمامه حتى تختفي من شدة الانبهار. تحدث عن الأفلام والسينما وقال: إن الجرافيكس أضافت إلى السينما. قلت: المشكلة أن الجرافيكس تكاد تبتلع السينما. فلا تعرف حتى إن كان الممثل حقيقيًا يبكي دموعًا حقيقية. ثم قلت: كما أن الجرافيكس تكاد تبتلع حياتنا ذاتها. قال: لكنه أضاف الكثير من الإبهار البصري كان ينقص السينما. نعم يا عزيزي عصر مزيف لعين! عصر الجرافيكس والطباعة ثلاثية الأبعاد. ثرثر بحماس عن كونه تحول إلى نباتي وأخذ يسرد قيمة ذلك إنسانيًا وكيف أن لذلك تأثيرًا رائعًا على جسده ومعدته. لم أعلق لأني لا أستطيع الخوض في مثل هذا الزيف حتى من قبل أن تأتيني حمى السماء. ليس لهذه الدرجة! إنسانيون جدًا لا يأكلون لحم الحيوانات لكنهم يأكلون لحم الإنسان بلا غضاضة. شعرت باختناق وضيق ولم أشأ الدخول في نقاش بائس حتى سمعته يقول: نحن في عصر الإنترنت. وكل شيء متاح على الشبكة. تململت وقلت

متأففًا: هذا يصعب الأمور لا يجعلها أسهل! قال متحمسًا: على العكس! يمكنك أن تتعلم أي علم تريد وأنت في غرفتك، في الماضي كان الناس يسافرون أميالًا لتلقي العلم، الآن يمكنك أن تصبح ما تريد بضغطة زر. أظن أن الزمن القادم سيكون للتعليم الإلكتروني والتعليم العادي هذا سيختفي. قلت خانقًا: لكن كل ما تقوله هو صُلب الصعوبة، فأنت اليوم ستدرس الموسيقى وغدًا الرسم وبعد غدٍ النحت، لكنك لن تنهي أيًا منها! نعم الإنترنت مليء بالبيانات، لكنه فوضى معلوماتية، يستحيل معها تكوين معرفة حقيقية. أصر على موقفه وقال إني أفكر كالكبار ويستحيل أن أفهم جيلهم أو أفكارهم. أفكار الجيل زد، جيل الأبوكاليبس. يومها ذهبتُ معها لأنه -على حد قولها- يسيئه أن أراه بصورة غير حقيقته، وهو يريد إصلاح الأمر بيني وبينه. قلت لعل الفتى يحبها حقًا وأخبرتني أن اللقاء سيتم في مقهى خارج المكتبة فذهبتُ لكني بعدما عرفته أكثر وسمعته يتكلم قلت لها: هذا الفتى لا يعرف ماذا يريد، يشبه البندول اليوم أقصى اليسار، غدًا سيكون أقصى اليمين. حدثت جلبة هائلة وسمعت أصوات تقارُع سيوف وسباب عظيم وأطفال تعدو وسيدات تولول، قال أبو رضا: لا مؤاخذة يا باشا هذا حال عزبة الشحاتين كل يوم! حارة وسخة لا تستر، هو الولد رضا عايز يهج من شوية! الواحد ذاق المر كم سنة في السعودية ثم عاد ليشتري هذه المخروبة! قلت: ولماذا تركت السعودية؟ قال: حكم النفس

على النفس ذل يا سامر بك، ربنا ما يحكم فيك أحد. هو في مثل الوالدا ثم قال ونحن نمشي: لا مؤاخذة المنطقة ليست قدر المقام، لكن أين سنذهب؟ هي مثوى والسلام سقف وأربعة جدران. البركة في سمير باشا وعدني بمطرح واسع وبحري في المدينة الجديدة التي يبنيها هذه جوار مدينتنا. كثر الله خيره، لكن الولد رضا ابني لو يترك حكاية التمثيل والتت هذه ويسمع الكلام! بدل ما هو مشحط نفسه وامرأته وابنه معه، اشترى في التجمع الخامس، ونحن فين والتجمع الخامس فين! لا وقسط على عشرين سنة، والولد ظهره انقطم. قلت له أخبرني خذ رأي أبيك لا تكن حمارًا، لكن ركب دماغه ابن الكلب. ولولا إني حلفت يمين طلاق على أمه إن الولد علي ابنه يدخل المدرسة الأمريكاني كان أخذه معه مصر. وقفت له وقلت لا! حفيدي لا يشقى وأنا حي على وجه الدنيا. عشنا وشوفنا يا أستاذ يريد إدخاله مدرسة ألماني. والولد حفيدي يبقى مثل أحمد زكي ويحب هيليجا وينسى أصله وفصله؟! قلت له: مصاريف المدرسة عليّ. فسكت ما هو أصله معذور هو هيجيب منين يعني؟ يكفي القسط الذي قطم ظهره. ثم التفت ناحيتي: صدعتك أنا بكلامي الكثير. لكن أنا فقط أريد إخراجك مما أنت فيه، سامحني الواحد شافكم وأنتم -لا تؤاخذني- عيال في اللفة. ما انت من دور رضا ابني.. آه أمال إيه.. وصلنا إلى مقهى "البشوات" ونادى: أنظف كرسي ياض يا عنبة للباشا. ثم ألقى السلام: سلام عليكم يا رجال. وردوا التحية

maktabbah.blogspot.com

بصوت عالٍ، وجلسنا على طاولة كبيرة تضم ثلاثة أشخاص، اثنان يلعبان بالدومينو والثالث يجاورهما مشاهدًا مُلقيًا بعض التعليقات. وتجاور كلا اللاعبين أرجيلة ضخمة من المعسل القص. أحضر فتى ضئيل الجسد كرسيًا بلاستيكيًا أخضر ووضعه ومسحه بمنشفة قذرة في يده وقال: أحلى كرسي يا بشوات. رحّب الجالسون على الطاولة بنا وصافحهم أبو رضا مصافحات خشنة تنم عن صداقة عميقة. قال مُعرفًا أحد اللاعبين: هذا يا سيدي إبراهيم دوكشة شغال الصبح ميكانيكي يفسد عربيات خلق الله، وبالليل حرامي ينزل يسرق العربيات السليمة. فقال الرجل وهو ينفث دخان الأرجيلة بكثافة موجهًا كلامه لزميله في اللعب: عليّ الطلاق ما أنت مروح غير وأنت واكل عشرة كمان. ثم ألقى قطعة من يده بصخب وقال: أيوه شيش جهار. قال المشاهد: ماشية معك يا ابن المفشولة. قال أبو رضا: وهذا يا سيدي أحرف مهاجم في مصر كابتن علاء زلطة. ثم أمسك قدمه بعنف ورفعها أمامي لأشاهدها وأكمل: سمانة بنت حرام! كانت عضلته قوية لدرجة أدهشتني فهو أنحل مني، لكن عروقه البارزة أعطتني انطباعًا بقوة جسدية رغم نحوله. رأسه حليقة تمامًا فلا شعر ولا لحية ويرتدي فانلة نادي مدينتنا بلونها البرتقالي المميز. لسعه أبو رضا على قفاه وقال: لكن الكيف يذل يا أستاذ سامر.. اليك لتوه خارج من السجن.. مخدرات طبعًا. مسكوه يبيع المخدرات في النادي للعيال اللاعبين. مد الرجل يده

وصافحني بيد خشنة وسمراء وقال: تشرفنا يا أستاذ. وسحب نفسًا عميقا من سيجارة في يده فانسحبت وجنتاه للداخل وبدا شيخًا لعينًا قذرًا بلا مأوى. قال: لا تفهمني خطأ يا أستاذ. أنا لم أجد شيئًا آخر أفعله وإلا كنت فعلته. قلت: ولماذا لا تدرب في النادي؟ بالتأكيد سيستفيدون من سمانتك! وابتسمت، فقال لاثقا: تسخر يا أستاذ؟ حقك! الواحد كان نفسه يبقى حاجة، لكن هذا البلد له أصحاب ونحن يدوبك شغالين عندهم. قال اللاعب الثاني بعدما نخر صوتًا بذيئًا من أنفه: أنت بقيت شيوعي يلا؟ رفع الكابتن زلطة يده قائلًا: في شيوعي يشرب بانجو يا باف؟! ضحك الرجل وقال: لا الشيوعي يشرب حشيش! ثم أنا باف يا ابن المبقعة؟! ثم نظر لي بنظرة جانبية وعاد بنظره للدومينو، وسأل "أبو رضا": ومن هو الكتكوت اسم النبي حارسه وصاينه؟ قال أبو رضا: ولما تعرف الآن من هو وتعملها على روحك؟ قال الرجل مستهترًا بشاربه السميك وجبهته العريضة وهو يلتفت بكامل وجهه ناحيتي: من يعني؟ قال أبو رضا: هذا سامر بك أخو سامي باشا سرور يا لطخ! رفع الرجل يده بسرعة في تحية عسكرية وقال: باشا! لا تؤاخذني يا باشا من لا يعرفك يجهلك. حكمة أخرى بنت زانية ورثناها عن بلهاء مدينتنا. قال أبو رضا: هذا سيد المدب وصدق من سماه مدب! سيد هذا أمين شرطة في نفس القسم مع سامي بك. قال سيد وهو يطأطئ رأسه: خدامك يا باشا. فقال أبو رضا: ولا يا عنبة أين المعسل؟

ثم قال لي: تحب تعسل؟ شيشة فواكه طيب؟ أومر. شكرته وقلت: French coffee. جاءت القهوة الفرنسية سريعًا وحضر المعسل ووقف عنبة الصغير يشد من لي الأرجيلة وهو يضبط الجمر الملتهب ثم ركب المبسم وناولها لأبي رضا. ارتشفت رشفة من القهوة وعبرت سيارة رياضية حمراء أعرفها جيدًا بسرعة بالغة وهي تراوغ عدة سيارات وكادت تنقلب، لم يعلق أبو رضا لكنه نظر لي قلقًا، وقال دوكشة الميكانيكي: مش كل من ركب بورش من غير مكنة وفرش بقى شيخ! قال الأمين سيد: يا جدع أرزاق! هم يفسدون وأنت تصلح. رزق الهبل على المجانين. ثم ألقى من يده قطعة دومينو وقال: خذ شيش اليك في وشك يا ابن المركوبة! قال الكابتن علاء: ألم أقل لكم هذه بلد لها أصحاب؟ شوف يا أستاذ نادي مدينتنا هذا كان يومًا له شنة ورنة، وكان الأهلي نفسه يعمل له ألف حساب. أيام! كان لدينا ناس تخاف على النادي فعلًا، أين أيام اللواء اسماعيل محارب وأخيه الكابتن حسين محارب، كان النادي فيه خير، كان الكابتن حسين هذا له عينين تعرف اللاعب الجيد من وسط مليون. عمرو زكي وعبد الظاهر السقا وياسر ريان كل هؤلاء أبناء النادي يا أستاذ، ولعبنا في أفريقيا ورفعنا اسم مصر! آه كان في سرقة، ومن ليس لصًا في هذه المدينة؟ لكن على قدر ما كان في سرقة كان في شغل وكرة واهتمام بالنادي. من يسرق يسرق لكن يرش! إنما الآن؟ أديك شايف حالنا! سرقة فقط! قال أبو رضا غاضبًا:

ياض يا عنبة، الحجر مولع يا ابن المحروقة. وقال سيد موجهًا كلامه لزلطة: والله شكلك انضممت للشيوعيين وسأنفخك. فقال دوكشة موجهًا حديثه نحوي: لا مؤاخذة يا باشا زمانك صدعت من ثرثرته. ثم ضرب الكابتن علاء على رأسه الأقرع: قلقاسة لتوه خرج من السجن وتلافيه كان يكلم نفسه بالداخل والمساجين لا مؤاخذة يركبونه. ضحكوا جميعًا فابتسمت مجاملا، قال دوكشة وهو يناولني هاتفا محمولا آيفون آخر إصدار ويقول: شكلك متعلم يا أستاذ وستفيدني، ما تشوف كده هاتفي على طول يهنج ويفصل. قال سيد الأمين: وأنت تحمل آيفون وأنت لا تعرف فك الخط يا ابن الجاهلة. قال دوكشة: البلد هذه تحب المنظرة، ماذا أفعل؟ قال أبو رضا: وهذا سرقته ولا اشتريته من حرامي! قال دوكشة: لا والله اشتريته قسط على خمس سنين! قلت: إذن الأفضل تذهب به للتوكيل. هز رأسه كأني خذلته، فقلت بزيف لعين: أخشى أن أفتحه فتخسر الضمان. قال سيد الأمين: دعك منه هذا حرامي ابن وسخة وتلافيه سارقه. ثم قال راجيًا: والنبي يا أستاذ تبقى توصي علينا سامي باشا قليلًا. فقلت بمزيد من الزيف: أكيد طبعًا إن شاء الله. وتململت فقال أبو رضا: خمس دقائق تشرب قهوتك وأروحك. وقفنا بالسيارة نتيجة للزحام عند تمثال الكاتب الشهير الذي رأيت بنفسي أطفالًا حفاة يبولون عند قدميه ورأيت مراهقين حمقى يحفرون عليه قصص حبهم بنت الزانية. قال

أبو رضا: أخشى أن نكون أزعجناك. قلت: لا، شكرًا لقد أكرمتني كثيرًا. قال: العفو يا ابن الأصول هذا الواجب ومن خيركم. ضرب على النافذة رجل أشعث أغبر يتسول، ففتح أبو رضا النافذة وقال: أنت يلا ألست تسكن في العزبة عندنا؟ قال المتسول: لا مؤاخذة يا باشا، لم أنتبه لك. فأغلق أبو رضا النافذة وقال: ملاعين، ابن الكلب هذا يملك عمارة كاملة تُؤجَّر كلها مفروش! يخدعون الناس الطيبين. ثم نظر لي: إياك تعطي أحد من هؤلاء الملاعين شلن حتى! وما الجديد يا سيدي؟ ولماذا يكون الشحاذون حقيقيين في مدينة مثل هذه؟ وما الذي ستفرزه مدينة مليئة بالدمامل سوى صديد قذر؟ حين وصلنا لنادي الجزيرة اشتد الزحام لضيق الشارع بعد اتساع ولوجود كمين الشرطة. وقف سامي كالمعتاد بزيه العسكري وفكرت أنه ربما يستحم به فأنا لم أره منذ تخرجه بزي آخر. كأنه صار جزءًا من جلده الثخين. كان يقف على مسار غير مسارنا لكنه حين لمح سيارتنا جاء ناحيتنا وأشار لنا بالتوقف وإنزال الزجاج. سمعت أبو رضا يقول: استر يا رب. وأنزل الزجاج وقال: سامي باشا مساء الفل. لم يرد سامي المساء وقال بصرامة: رخص وبطايق. قال أبو رضا مهادنًا: طبعًا طبعًا. وأخرج رخصة السيارة من الشماسة ووضع يده في جيب جلبابه الداخلي وأخرج محفظته ثم فتحها وأعطاه بطاقته ورخصة قيادته. قال سامي: والبك ليس معه بطاقة؟ قال أبو رضا: جلّ من لا يسهو يا باشا. والمسامح كريم.

قال سامي: زجاجك فاميه دون ترخيص. وراكبك لا يحمل بطاقة. شكلك مشغل السيارة تاكسي. ثم بصوت آمر: اركن على جنب، وانزل لي أنت وهو. قال أبو رضا: لا حول ولا قوة إلا بالله.. اللهم اخزيك يا شيطان. وبدأ يدور بالسيارة ليركنها، وأنا أرتجف غضبًا فقال لي: لا تخف يا سامر باشا. أنا سأنزل أتفاهم معه، ابق هنا. ولو حكمت سأتصل بالوالد لا تقلق. لم أقدر على البقاء في السيارة طويلًا فنزلت خلف أبي رضا ونظر لي سامي بابتسامة ساخرة وقال مكملًا حديثه مع أبي رضا: يمكنك الذهاب، لكن رخصة العربية ستُسحب. على المالك الذهاب للمرور وإزالة الفاميه ودفع الغرامة. هذا هو القانون. ثم أشار لي: والأستاذ مشتبه فيه سيُقبض عليه تحري. قال أبو رضا: لكن يا باشا.. قال سامي بتهديد: ألا يعجبك القانون؟ ثم أشار لعساكره: خذوه. صفعني العسكري على قفاي وطوقني من رقبتي وجرني ثم ألقاني في البوكس. أخذت أنادي على أبي رضا، فضربني عسكري على وجهي وقال: اخرس يلا. أرتجف غاضبًا وسامي بأمر "أبو رضا" بالابتعاد وإلا وضعه معي في البوكس. ثم طرق بيده على البوكس وقال: على التخشيبة لغاية ما يبان له صاحب. بعد ليلتين خرجت، دخل بشاويش حنفي وأمسكني من وسط المجرمين وخرج بي ثم ألقاني خارج القسم وقال: امش بسرعة. لن أقص ما حدث لي بين المجرمين ولا داعي لأخبرك بمدى الوصاية التي شعرت بها في الداخل، مشيت قليلًا وأنا في عدم اتزان وذهول،

ولم أنتبه لصوت أبي رضا يناديني لأركب، لكنه فجأة أحاطني بذراعه وقال: أستاذ سامر.. وأخذ يحوقل ويبسمل. ركبت السيارة صامتًا، قال: والله أقسم لك وحياة حفيدي علي، اتصلت بالوالد لكنه لم يرد والأستاذ سمير لا أعرف أين، وخشيت أن أتصل بسيادة اللواء أسامة فيزيد غضب ساعي باشا عليك. فحكيت للست مريم وهي الله يبارك لها، كلمت الست بسنت وهي تصرفت، لا حول ولا قوة إلا بالله.. شيطان يا أستاذ شيطان.. ثم تنهد قائلًا: والله الغني هذا نقمة! ثم تمتم: ملابس الولا رضا تبهدلت خالص. حين وصلت المنزل لم أجد مريم ووجدت سمير يجلس مرتديًا شورتًا داخليًا فقط ويمسك بيده زجاجة بيرة، ناولني الزجاجة وقال: اشرب سنتنسيك كل ما حدث. قلت: أين مريم؟ قال: في المستشفى. قلتُ: لمَ؟ قال: بلبعت كم شريط منوم! حريم. ماذا نفعل في الحريم؟ لكني لم أرد عليه وتركته ورقيت السلم لغرفتي وسمعته يقول بصوت عالٍ: يا غبي تعالَ اشرب أنا أريد مصلحتك! ألقيت نفسي على سريري ورفعت رأسي للسقف متأملًا صامتًا. أشعر بالقرف من جسدي كله وأتمنى لو أسلخني. أمسكت هاتفي فوجدت ثلاثة اتصالات من هبة في أوقات مختلفة، ورسائل على الواتساب: لم تحضر الجلسة، أردت الاطمئنان عليك، ألسنا صديقين؟ لم أرد وألقيت الهاتف بعيدًا، أطفئني نمت قليلًا لأني أفقت فجأة على صوت أبي العالي يأتي من غرفة أمي فخرجت ووقفت جوار بابها المفتوح أتأمل أبي

على التلفزيون في مناظرة يقول: إنه عصر جديد أصبحت فيه مرجعية كل إنسان هي ذاته، ولولا المنظومة الأخلاقية التي يتحلى بها الإنسان، لارتكب فظائع لا تحتمل، فلا دين ولا قانون سي.. انتبهت أمي لوجودي فالتفتت وأشارت لي بالجلوس جوارها على السرير وقالت: شوف أبوك ابن الكلب واقف يتكلم عن الأخلاق! هو الذي لا يملك ذرة منها! زوج الخادمة ابن الكلب إتفوا ثم تأملت كدماتي وملابسي المهلهلة الممزقة وقالت: أين كنت؟ وماذا حدث لوجهك؟ وقبل أن أرد، انقطع بث أبي لفاصل إعلاني، وظهر إعلان عن الشيخ أبو خالد المغربي الذي يفك الأعمال ويصنع الطلاسم، ففقزت أمي وقالت: سامر بسرعة احفظ معي الرقم. ثم أخذت تسجل رقم الساحر وهي تقول: على الله يكون أرخص من الذي سبقه. ثم وجهت كلامها إليّ: هذه الخادمة سحرت لأبيك عملًا يكرهه فيّ وفي أولاده، سقت عليها شيوخ كثر فشلوا في فكه، عمل سفلي أسود، لكن لا تقلق، أبوكم سيعود إليكم، ولا أبقى بنت عبد الحميد حسان إن لم يرجع. التفتُّ على جلبة بعيدة صادرة من غرفة سيليا. ذهبت لأرى القادم الجديد، فوجدت جدي يقف مستندًا على بابها مرتعشًا وقد سقطت درنقته وبال على نفسه فسال البول في كل مكان، وقفت خلفه محاذرًا لألقي نظرة فوجدتُ سميرًا يلوّح بزجاجة البيرة في يمناه، يصيح منتصرًا كراعي بقر، ويشد شعر سيليا بيسراه، وهو يمتطيها من خلف وهي تصرخ متشبثة ثم

ترفع عينيها وتنظر لي ولجدي بنظرة شهوانية مطلقة مزيدًا من الآهات، ثم تبتسم ابتسامة عابثة. فزعت فدفعت جدي وأظنه سقط وسط البول لكني لم أتمهل وجريت، نزلت السلم مهرولًا واصطدمت قدمي فوقعت لكني قمت وعدوت بأسرع ما يمكنني، أهرب من صوت الآهات الذي يلاحقني وكلما تلفت بعيني رأيته يضاجعها وهو يلوح بالبيرة، في الشوارع وفي السيارات ووسط الميدان ومداخل العمارات وواجهات المحلات، أعدو وأنفاسي تتقطع والدموع تنسكب من عيني. أبحث عن السماء فلا أراها بسبب الأعمدة اللعينة فيزداد نحيبي، وجوه الناس تُمسح ملامحها وتنمسخ فجأة إلى حشرات، وتتحول أجسادهم إلى ممصات وقرون استشعار لعينة تتراقص مع هرولتهم حولي، أنوار السيارات تصعق عيني، فأحاول حمايتها بيدي، وأخفض رأسي وبالكاد أرى قدمي وأنا لا زلت أعدو غير عابئ بالوصول. وصلنا للسور الطويل ووقفنا نفكر في خطة واضحة، لكن الكابتن زلطة توجه وسيجارة المخدرات في فمه نحو نقطة مكسورة في السور وضع قدمه عليها ورفع نفسه بسهولة وقفز إلى الداخل، التصقنا بالسور نهمس له، قال دوكشة: ماذا تفعل يا ابن المعتوهة؟ لم نسمع منه ردًا، فرفع سيد هاتفه ليتصل به، سمعنا صوت هاتفه يرن ولا أحد يرد، فتوقعنا إما أن هاتفه وقع منه أو أنه الآن نفسه في غيبوبة ما، سب ولعن سيد المدب وقال دوكشة: تلاقيه رافع ابن الوسخة وسيفضحنا. لا بد أن

ندخل ونحمله. قال سيد: ندخل إلى أين هل جننت؟ قلت وأنا أرتجف: والنقود التي أخذتها؟ لماذا جئت إذن؟ زعق: يا باشا هذا أمن... رأينا زلطة على أحد الأعمدة المتصلة بمحول ضخم يلوح لنا بالسيجارة من بعيد، ويصرخ بصوت عالٍ يسأل عن كيفية غلق المحول، أخذا يعنفانه بصوتٍ هامس وهما يشيران بأيديهما وهو يصرخ أنه لا يفهم، ثم اختفى برهةً قبل أن يدوي انفجارٌ مريع. سقطت على ظهري وتساقطت قطع من لحم مهترئ فوق وجهي، وتناثرت أشلاء مضيئة بوهج برتقالي فبدت كألعابٍ نارية، كعصافير صغيرة تدور حول ألسنة اللهب التي تراقص دخانًا أسود مفعمًا برائحة الشواء. عم الهدوء رغم طقطقة النيران ورغم الانفجارات الصغيرة التي توالت قليلا ثم توقفت. هب هواءٌ عليل فدفع الدخان والنيران ناحية المدينة الأخرى، والتمع ضوءٌ أخّاذ لنجم بعيد، فدب النشاط فيَّ وقمتُ معتدلًا لأقف مستندًا على سور النيل أتأمل مدينتنا التي رقدت في العتمة بعد انقطاع الكهرباء وأشاهد المسافرين المتعاركين في العبارة. أتنفس وأفتح ذراعي محتضنًا المدينة والسماء وانعكاسها الرقراق المتراقص على الماء. يضربني الهواء فأترك رأسي تنثني إلى الوراء دون معاندة وتسح عيناي دموعًا صامتة. التفتُّ إلى يميني فأجد هبة تقترب مني على استحياء، فأقبض على يدها وأشدها جواري، فتندفع بقفزة للأمام، ثم تسكن إليَّ وتستند برأسها على كتفي. أتنفس بعمق فيعيد الهواء تنظيم خلاياي من جديد

ويعود إليّ الشم ويصيبني انتصابٌ غريبٌ وغير لائق، وتشد هبة على يدي فألتفت لأقبلها لكن سيليا تأتي إلى يساري فأخجل وأداري انتصابي بيسراي. وتأتيني صورته وهو يضاجعها مشوشة ضبابية وكلما حاولت التركيز فيها تحول جسداهما إلى حشرتي سرعوف برؤوس بشرية، وأرى الأنثى التي تحمل وجه سيليا تقضم رأس الذكر الذي يحمل وجه سمير فيتبقى جسده مستمرًا في المضاجعة ملوحا بزجاجة البيرة وتلوك هي الرأس في فمها ببطء وهي تنظر إليّ بنظرة شهوانية ثم تنهيها وتبتسم ابتسامة عابثة. يضربني الهواء فيبعثر الصورة. جسدي يرتجف وقد بدأت الآلام تغزوني. شعرت بالجوع فجأة أنا الذي فقدت شهيتي منذ زمن بعيد. لعلها رائحة اللحم البشري المحترق التي تشبه رائحة الباربكيو. وهل فيه لحم سوى سمانته اللعينة؟ تملكتني نوبة فزع. مريم واقفة على السور وسمير جاء أيضًا وخيل إليّ أني رأيت سامي. تأملت الغجرية الفاتنة المتلألئة بضفائرها المنتظمة ورقصتها اللعوب وقلت لا يمكن أن يكون كل هذا غير حقيقي. أصابني غثيان ابن عاهرة، فانثنيت أقيء، شعرت بأيدٍ تشدني، فرفعت رأسي، وجدتهم واقفين صفًا جميعًا فوق السور ممسكين بأيدي بعضهم ينظرون إليّ، فهمت ما سيفعلونه فحاولت الاعتدال، لكن القيء غلبني فأفرغت مرةً أخرى ورفعت يدي أحاول إمساكهم. قفزوا واحدًا تلو الآخر. سمعت صوت المولّد الاحتياطي ابن الزانية يدور، ورأيت الأعمدة تضيء من جديد،

وتوالت المباني تضيء في المدينة، ووصلتني جلبة الاحتفال بعودة الكهرباء رغم المسافة. ساعدتني أيدي الأمين سيد لأقف ثم نادى على دوكشة. حملاني بسرعة لنختبئ في مدخل إحدى العمارات القريبة حتى مرت سيارات الشرطة والإطفاء، قال دوكشة: يا للمصيبة ماذا سنفعل الآن؟ قال سيد المدب: لا شيء سنعود إلى بيوتنا كأن شيئًا لم يكن. قال دوكشة: وعلاء؟ نخر سيد: علاء تبخر، انساه، غالبًا ستقيد ضد مجهول أو حتى ماسًا كهربائيًا، نحن في السليم، المهم لا أحد يفتح فمه بكلمة واحدة وإلا أقسم بحياة أولادي سأجعله يتمنى لو لم تلده أمه. هز دوكشة رأسه ونظر لي سيد منتظرًا إيماءتي لكني دفعته بيدي فجأة فاصطدم بشيء خلفه وسقط وركضت خارجًا بأقصى ما لدي من قوة. وصلت لكوبري القطار واثنيت ألهث والعالم يدور أمام عيني ثم بالكاد استعدت أنفاسي وركضت ثانية حتى وصلت لمدينتنا؛ للشارع المزدحم وأبواق السيارات اللعينة تصدح محتفلة والأنوار بنت الزانية تملأ الأفق، الناس حولي مندفعة عائمة تلهث في مطاردتها لقطار لا يقف، شعرت أني أتداعى وأنا أطوف في وسط الشارع، أرفع رأسي ناحية السماء وبالكاد أرى النجوم من الأضواء فيسيل دمعٌ ساخنٌ من عينيَّ ويعود إليّ التذوق فجأةً فأذوق ملح دموعي. أشد الناس من أيديهم وأشير للسماء كي ينظروا، لكنهم يزيحون يدي بقرف كأني متسول أو مجنون، ويتجاوزونني مسرعين غير مبالين، كأن لا سماء فوق المدينة.

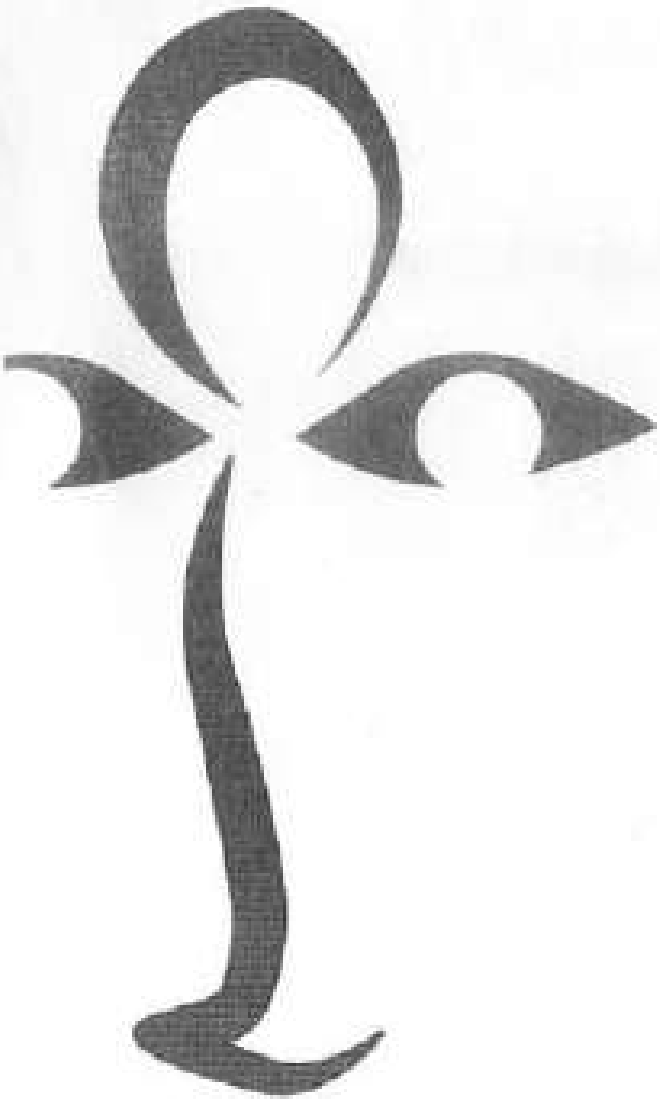

وصلت لكوبري القطار وانشنيتُ ألهثُ، والعالمُ يدور أمام عيني. ثم بالكاد استعدتُ أنفاسي وركضتُ ثانيةً حتى وصلت لمدينتنا؛ للشارع المزدحم وأبواق السيارات اللعينة تصدح مُحتفلةً، والأنوار تملأ الأفق، الناس حولي مندفعة عائمة تلهث في مطاردتها لقطار لا يقف، شعرتُ أني أتداعى وأنا أطوف في وسط الشارع. أرفع رأسي ناحية السماء وبالكاد أرى النجوم من الأضواء فيسيل دمع ساخن من عينيّ ويعود إليّ التذوُّق فجأة فأذوق ملح دموعي. أشدّ الناس من أيديهم وأشير للسماء كي ينظروا، لكنهم يُزيحون يدي بقرف كأني متسوّل أو مجنون، ويتجاوزونني مُسرعين غير مُبالين، كأن لا سماء فوق المدينة.

تُسلِّط "لا سماء فوق المدينة" الضوء على تراكُمات الحداثة وتأثيراتها على مدينة صغيرة على ضفاف النيل. فالراوي الذي لم يعُد يُلهمه شيءٌ سوى جمال السماء، يُهاجم القُبح الذي تغرق فيه المدينة، ويحاول لفت انتباه الناس لما تبقى من الجمال، لكنهم غارقون في سعيهم نحو مزيد من القبح والزيف. الرواية تدور في زمن موازٍ غير حقيقي مُتخيّل أقرب إلى الديستوبيا لكنها ديستوبيا واقعية. كيف تؤثر الحداثة وتفشّي القبح المُصاحب لها على مدينة ريفية صغيرة لتوّها خرجت إلى العالم؟

منشورات الربيع
مكتبة بمسافة الهاتف
arabicpublications.com